رواية سلاما

"رجلٌ يسعى"

م/محمود عبد السلام

اسم الكتاب : سلاما "رجلٌ يسعى".

اسم الكاتب : م/ محمود عبدالسلام

تصميم الغلاف : مي مجدي

تنسيق وتدقيق لغوي : نورهان هاني

رقم الإيداع : ٢٠٢٤-٢٢٠٥٠

الترقيم الدولى : ٩٧٨-٩٧٧-٨٧٩١-٣٧-٢

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

سلاما

"رجلٌ يسعى"

مؤسسة الكاتب العربي
The Writer Operation

;

المقدمة

على ضفاف نيل القاهرة، وتحت ظلال شجرة من أشجار الجميز العريقة، يجلس شابًا مستندًا إلى شجرة الجميز ينظر إلى النيل، وهذا الشاب هو سلاما بطل قصتنا.

يقضي سلاما أيامه في التجول حول المكان الذي يعيش فيه، ويقتات على اصطياد السمك بسنارته التي لا يملك غيرها هي والعصا التي في يده، والسنارة عبارة عن خيط مربوط في نهايته خطاف، ويحتفظ بها في جيبه الخلفي.

وهذه الأيام التي سنحكي قصتها ماهي إلا بعض الأيام التي قضاها سلاما تحت شجرة الجميز.

يبدأ سلاما يومه عادةً بعد صلاة الفجر، ويجلس مستندًا على شجرة الجميز وينظر إلى النيل في تأمل واستغراق، وكأنما يعيش في عزلة تامة عن الوسط المحيط به.

اليوم الأول

يذهب سلاما يوميًا إلى كشك عم عوض الذي يقع في الحي المقابل لشجرة الجميز، وعم عوض هو رجل مسن يبيع الجرائد والمجلات في هذا الكشك، وقد تعود سلاما الذهاب إليه يوميًا في هذا التوقيت.

يصل سلاما إلى الكشك فيبدأ في ترتيب الجرائد التي أحضرها عامل التوزيعات، ويقوم بفتح الكشك بالمفتاح الذي يتركه له عم عوض تحت شجرة صغيرة بجانب الكشك.

بعد وصول عم عوض يبدأ سلاما في قراءة بعض العناوين التي يختارها ويعرف أنها يمكن أن تكون محور اهتمام عم عوض، فعم عوض لم يعد قادرًا على القراءة نظرًا لضعف بصره بسبب كبر سنه، وفي أحيان كثيرة نشاهد نقاشات حادة بين سلاما وعم عوض في بعض العناوين التي يقرؤها، فعم عوض مثقف من الدرجة الأولى، وهذا النقاش يتكرر تقريبًا كل يوم.

وفي أحد الأيام وبعد عودة سلاما من عند عم عوض؛ رأى أطفالًا يمسكون كلبًا ويلعبون به، ولكنهم يربطونه بصورة قاسية جدًا بحيث أن الحبل يلف حول عنق الكلب يكاد أن يخنقه.

هرع سلاما لإنقاذ الكلب من بين أيديهم، وأمسك بالحبل وقام بفكه من حول عنق الكلب، لكن الكلب وبمجرد الشعور بالحرية أسرع بعيدا عن الأطفال، ولم يشعر بالسيارات التي تمر على الطريق، فاصطدم بإحدى السيارات ووقع على الأرض .

فأسرع سلاما ليرى ما حدث له، فوجد أنه قد كسرت قدمه، فحمله على يديه وأراد أن يقوم ببعض الإسعافات الأولية له.

وكان بالقرب من المكان عمارة بها بعض العيادات الطبية، فذهب إلى الحارس وسأله عن أي مساعدة ممكنة، فأخبره بوجود عيادة طبيب عظام في الطابق السابع، وأن هذا الطبيب يأتي مبكرًا على غير العادة.

المكان عيادة الطبيب

ذهب سلاما على الفور إلى العيادة، وأخبر الطبيب بالحالة، ولكن الطبيب أخبره أن هذه عيادة خاصة بالبشر وليست عيادة بيطرية.

أبدى سلاما تفهمه لهذا الأمر ولكنه فقط يريد بعض الإسعافات الأولية قبل أخذه إلى المستشفى البيطري، فأراد الطبيب معرفة ما هي علاقة سلاما بهذا الكلب، فأخبره أنه رآه على الطريق، فأراد أن يسعفه حتى يستطيع أن يكمل حياته ويعيش بصورة طبيعية، فأراد أن يقدم له الإسعافات الأولية وأنه ليس ملكًا له، فتعجب الطبيب من سلاما ورد فعله مع كلب من كلاب الشوارع.

بدأ الطبيب في فحص الحالة، وأخبره أنه توجد بعض العلاجات الطبية قد قاربت على انتهاء الصلاحية لأن العيادة تكاد تكون فارغة تمامًا من أي زبائن، فلا مانع من القيام بالكشف على الكلب وإعطائه بعض العلاجات؛ لأنه سوف يلقي هذه العلاجات في القمامة بعد عدة أيام، وبدأ الطبيب في علاج الكلب، وبعد أن أنهى الطبيب عمله أراد سلاما معرفة التكلفة المطلوبة، ولكن الطبيب مازحًا رفض تمامًا وأخبره أنه لم يفعله من أجله هو؛ وإنما فعله من أجل الكلب، فعليه هو أن يقوم بدفع الثمن.

أخذ سلاما الأمر على محمل الجد، وقبل أن يغادر العيادة نظر إلى الكلب **وقال**:

سلاما : اذاً عليك دفع الثمن.

ضحك الطبيب من كلام سلاما، ولكنه لم يعلق على ما سمع.

شكر سلاما الطبيب، وبدأ يتهيأ للخروج، ولكن قبل أن يغادر سلاما العيادة تذكر الطبيب أنه رأى سلاما قبل ذلك ولكنه لا يعرف أين.

الطبيب : نعم تذكرت أنت من يجلس تحت شجرة الجميز، هذا صحيح**!** أنت من يجلس تحت الشجرة، رأيتك أكثر من مرة وأنا أمر من أمامك كل يوم تقريبا.

إبتسم سلاما وهز رأسه مؤكدًا على كلامه، ولكن الطبيب أراد أن يستمع إلى حكاية سلاما ولماذا يجلس تحت شجرة الجميز بهذه الطريقة، فأخبره سلاما أنه يريد أن يستمع له أولًا، ولماذا هذه العيادة ليس فيها أي مرضي مع إنه أستاذ جامعي، جلس الطبيب على مكتبه وبدأ بالحديث.

الطبيب : أمامي نصف ساعة تقريبًا قبل الذهاب إلى الجامعة.

طلب الطبيب من سلاما الجلوس حتى يحكي له الحكاية، حكاية العيادة الفارغة تمامًا من المرضى.

الطبيب : في بداية زواجي كانت هناك مشكلة في الإنجاب، واستمرت لمدة خمس سنوات، وزوجتي تعمل طبيبة نفسية؛ ولكن على العكس تمامًا عيادتها مليئة بالمرضى ومشغولة بصورة كبيرة، وأنا أذهب إلى الجامعة وأعود لأجلس بمفردي في البيت حتى تنهي عملها، وللتغلب على هذا الفراغ قمت بفتح هذه العيادة حتى أتمكن من شغل أوقات الفراغ، ولكن لم تكن الأمور على ما يرام ولم يزرني إلا القليل أو النادر من المرضى، ومع ذلك لم أقدم على غلق العيادة حتى بعد الإنجاب؛ لأن زوجتي قد اعتادت على هذا الأمر وقد رتبت يومها على عودتي من العمل مساءًا، ولذلك فقد استسلمت للأمر ولم أستطع أن أغيره، فأنا أحضر إلى العيادة مبكرًا قبل الذهاب إلى الجامعة وأعود إليها أيضًا في المساء وأنا سعيد بهذا الأمر، ولكن مع عدم وجود مرضى فقد أشعر بالملل أحيانا، ولكن في جميع الأحوال يعتبر الوضع أفضل من غيره.

نظر سلاما إلى الساعة الموجودة على الحائط.

سلاما : لقد فاتت النصف ساعة تقريبًا فعلينا الذهاب حتى لا تتأخر.

أعاد سلاما النظر إلى الكلب مرةً أخرى وكرر نفس الجملة السابقة.

سلاما : عليك مقابلة المعروف بالمعروف.

الطبيب : في المرة الأولى عندما ذكرت هذا الكلام ظننتك تمزح؛ ولكن يبدو أنك تعي ما تقول.

سلاما : أكيد!

الطبيب : ولكن كيف يمكن له أن يفعل ذلك ؟

سلاما : بسيطة جدًا يدعو لك.

وهنا بدأ الطبيب الشك في تصرفات وكلام سلاما ومدى صحة قواه النفسية والعقلية، ولكنه فضل عدم التعليق على ما سمع.

شجرة الجميز

وصل سلاما إلى شجرة الجميز، وأطلق على الكلب اسم شاكو، وبدأ في القيام على رعايته وعلاجه، وأخذ سلاما سنارته ليصطاد.

في العادة، كان يقوم سلاما بالصيد من أجله فقط؛ ولكن الآن هناك ضيف جديد، ويبدو أن هذا الضيف قد جاء برزقه، فقد خرجت سمكة كبيرة على غير المعتاد.

وتذكر سلاما والده عندما كان يقول إنها " أعتاب وأقدام ونواصي " فهناك عتبة خير، وهناك قدم خير، وهناك ناصية خير، فيبدو أن شاكو له نصيب من هذه الخيرية، وقام سلاما بتجهيز السمكة والقيام بالشواء وأعطى شاكو نصيبه منها، وبعد الانتهاء من الطعام جلس سلاما جلسته المعتادة وأسند ظهره إلى شجرة الجميز.

ويوجد على مقربة من الشجرة جسر يجلس عليه الناس ليستمتعوا بمشاهدة النيل، ولحسن الحظ أن المسافة بين سلاما وبين الجسر الذي أمامه بعيدة نوعًا ما، وهذا منحه فرصة عظيمة؛ وهي أنه يستطيع أن يرى الأشخاص من فوق الجسر ولا يسمع الأصوات الصادرة منهم،ولهذا فقد تمكن من التركيز على لغة الجسد، وهذا أكسبه مهارة في فهم أفضل للشخص بمجرد رؤيته وحتى قبل ان يتكلم معه، وهذا ما كان يسمى قديمًا بعلم الفراسة.

****

اليوم الثاني

شجرة الجميز

عادة ما يستيقظ سلاما قبل أذان الفجر بقليل وينتظر حتى يؤذن الفجر فيصلي وبعد ذلك يبدأ يومه المعتاد، فهو يعتمد في التقويم اليومي على أوقات الصلاة؛ فإن اليوم بالنسبة له يبدأ من الفجر وينتهي بالعشاء.

ويوجد إحساس غريب يشعر به كل من يجلس في هذا المكان، فكل من يجلس تحت شجرة الجميز يشعر بالراحة والسكينة، وربما هذه الراحة مصدرها القصة التي يتداولها الناس في هذا الحي وهي أنه كان في قديم الزمان، رجل صالح يجلس تحت هذه الشجرة، ومن المحتمل أن هذه الطاقة الإيجابية يكون مصدرها هذا الرجل الصالح، واستمرت حتى الآن فكل من يجلس إلى هذه الشجرة يشعر بتلك الأحاسيس.

ولكن هذا اليوم الذي سوف نحكي حكايته من أيام سلاما له شأن مغاير لأنه يوم مميز، وله طقوس خاصة به، فهو أول يوم من أيام شهر رمضان المبارك.

وقبل البداية في سرد ما حدث في هذا اليوم، نود الإشارة إلى أن أننا لا نذكر الأيام بشكل متوالي؛ ولكن نختار بعض الأيام التي يمكن أن تكون الأحداث فيها يمكن أن تكتسب أهمية خاصة أو حدث فيها مواقف تستحق الاهتمام.

فنحن الآن في أول يوم من أيام الصيام بعد وقت الإفطار بقليل، وقد تناول سلاما إفطاره، وجلس ينظر إلى النيل كالمعتاد، وبجواره شاكو ، الذي أصبح من الملازمين لسلاما حلًا وترحالا بعدما اعتنى به حتى تم شفائه.

ونلاحظ أن شاكو بدأ يفهم سلاما من إشارته ونظراته ولا يحتاج حتى إلى كلام، فكأنه قد تعرف على صفات صاحبه وتأقلم معها، وإذا أمعنت النظر إلى سلاما وشاكو، تجد أن شاكو يحاول تقليد سلاما في حركاته وسكناته.

فنجد مثلًا أنه عندما يكون سلاما جالسًا يتأمل أو ينظر إلى النيل، نجد أن شاكو أيضا يأخذ نفس الوضعية ويجلس بجواره وينظر متأملا إلى النيل، وأيضًا أصبح شاكو الحارس الشخصي له لا يفارقه أبدًا، فثمة علاقة ما قد نشأت بين شاكو وسلاما جعلت شاكو لا يرضى إلا أن يكون بجوار صاحبه وملازمًا له.

وفي أثناء جلوس سلاما وشاكو مستغرقين في النظر إلى النيل نسمع صوت ينادى على سلاما.

الصوت : يا حج، أنت يا رجل.

فالتفت سلاما ببطء إلى مصدر الصوت، وقبل إكمال سلاما الالتفات كان شاكو قد سبق وتحرك سريعا وجلس أمام سلاما مباشرةً بينه وبين مصدر الصوت، وعندما التفت سلاما، وجد أن الصوت لسيدة تنادي عليه من خلال زجاج سيارتها وتشير إليه بالقدوم نحوها، فنظر إليها ولم يحرك ساكنًا، وأمعن النظر ليرى هل تريد مساعدة ما

فلم يرى ما يستدعي القلق؛ ولكنه ظن أنها تريد أن تعطيه إفطارًا أو شيء من هذا القبيل، فعاد والتفت مرةً أخرى إلى النيل ولم يتحرك نحوها، فغضبت السيدة وخرجت مسرعة من سيارتها واتجهت نحوه وهي تناديه ولكن بصوت مرتفع قليلًا وأكثر حدة، ولكن سلاما ما زال على حالته، ولم يحرك ساكنا، وكأنه لا يسمع شيئا، بخلاف شاكو الذي وقف متحفزًا ومستعدًا لأي خطر قد يقع لصاحبه من قبل هذه السيدة الدخيلة والتي يبدو عليها الغضب الشديد والانفعال، ولما اقتربت السيدة من الشجرة، بدء شاكو في إصدار صوت تحذير لها، وعندما سمعت السيدة ذلك الصوت شعرت بالخوف وتراجعت بجوار سيارتها مرة أخرى، وخفضت من نبرتها وتحدثت بصوت أقل حدة وبقدر من التماسك.

السيدة : أنا فقط أريد أن أسألك عن أمر هام.

فأعاد سلاما النظر إليها من مكانه، وأومأ لها بالحديث والسؤال عما تريد.

السيدة : أريد أن أسأل عن الشارع والناس، الشارع ليس به أحد، لا سيارات ولا ناس ماذا حدث؟ أكيد هناك أمر ما لأن الوضع غير طبيعي.

فلاحظ سلاما أنها ربما لا تدري أن اليوم هو أول أيام شهر رمضان والكل في بيته لتناول الإفطار.

سلاما : اليوم أول رمضان ، الناس في بيوتهم لتناول الإفطار.

وقام سلاما وتحرك نحوها، وشاكو بجواره يسبق خطاه، وعندما سمعت السيدة هذا الكلام، وعرفت أن اليوم هو أول أيام شهر رمضان، بدا عليها الخجل واللوم لنفسها، وقامت بالضرب على سيارتها بقدمها، وقالت مستنكرة:

السيدة : حتى رمضان **!**

وشعر سلاما بموقفها فأراد أن يهدأ من حالها، وأحضر لها تمرة لتفطر عليها، فنظرت إليه **وقالت** : لا داعي، فقد فاتني اليوم وأنا نائمة ونسيت أنه قد دخل رمضان.

سلاما : أبي رحمه الله كانت له جملة يكررها دائما على أسماعنا في كل يوم تقريبًا " يا أولاد الدين ليس صومًا وصلاة "

فلما سمعت السيدة هذه الكلمات دهشت وأرادت معرفة المعنى المراد من الجملة، فقد نشأت وترعرعت على أن الدين إنما هو بني الإسلام على خمس، وجميعهم أعمال بدنية شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة،وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا، هذا هو الإسلام، كله شعائر وعبادات، فمن أراد التمسك والالتزام بالدين، فعليه بهذه الخمس حتى يكون مسلمًا صالحًا قد جمع له الإسلام كله، وكلما زاد تمسكه بالعبادات زاد إيمانه، فهذا ما عرفته عن الدين فكيف يأتي من يقول ببساطة هذا الكلام ؟

السيدة : يعني إيه الدين ليس صلاة ولا صومًا ؟

جلس سلاما على الرصيف بالقرب من السيدة التي ما زالت تقف بجوار سيارتها.

السيدة : أعذرني أنا لم استيقظ إلا الآن، ونسيت تمامًا أن هذا هو أول رمضان، واعتدت الذهاب إلى العمل في هذا الوقت، وعندما خرجت إلى الشارع شعرت ببعض الريبة والاستغراب من أن الأماكن والشوارع فارغة على غير المعتاد، ولكني لم أشغل بالي إلى أن وصلت إلى هنا فتوقفت وحدث ما حدث من النداء عليك، وسألتك بهذه الطريقة الفظة.

سلاما : قمت بالنداء على شخص ما، وهذا من حقوق الإنسان و حق من حقوقك التي يكفلها لك الدستور والقانون، وأنا أيضًا لم أستجب لكلامك، وهذا أيضا يدخل ضمن حقوقي التي كفلها لي الدستور، ولذلك فلا داعي للإعتذار.

السيدة : ولكني تكلمت معك بصورة غير لائقة .

سلاما : الأهم من الفعل هو الباعث على هذا الفعل، وليس الفعل نفسه، أي بمعنى آخر لماذا تحدثت مع إنسان لا تعرفيه من قبل بهذه الطريقة وبهذا الأسلوب ؟

لم يجد سلاما ردًا من السيدة، فقام هو بالرد على نفسه.

سلاما : يحكم بعض الأشخاص على الناس من خلال مظهرهم، ويكون هذا التصرف من غير وعي ولا تعمد، فقد يكون هذا التصرف راجع إلى الصورة الذهنية المخزنة في عقله الباطن، فأصبحت أفعاله وردود فعله من خلال هذا المقياس الذي وضعه لنفسه في حكمه على الناس من غنى، وفقر، ومنصب، وغير ذلك، وكلها مقاييس قد وضعها واستخدمها وحتى دون أن يدرك ذلك، وغالبًا ما تعتمد هذه المقاييس على المظاهر، ومن ثم يتم من خلالها الحكم على الآخر وعلى طريقة التعامل معه، و يتم على أساسها الشعور بالغضب أو عدم الاهتمام، أو على العكس يمكن أن يؤدي هذا المقياس إلى تفهم الآخر وتقدير الموقف، وأيضًا خلق الأعذار له، أو أن يحدث العكس تمامًا، ويحدث ذلك في الغالب من غير وعي ولا إدراك من الشخص نفسه، ويمكن التغلب على ذلك كله بجملة بسيطة يستطيع الشخص ترديدها عند رؤيته لأي إنسان لأول مرة وهي " تكلم حتى أراك "، فعندما يكرر هذه الجملة يقوم بعملية تنبيه للذهن، فلا يحكم على الأشخاص من خلال المظهر الخارجي.

ولكن الشيء الأكثر أهمية هنا هو ما يمكن أن نسميه " نظرية المقياس"

السيدة : نظرية المقياس !

سلاما : نعم.

إذا سألتك مثلا عن سعر هذه السيارة الخاصة بك، هل تعتبر رخيصة الثمن أو غالية الثمن؟

السيدة : رخيصة جدًا.

سلاما : كيف توصلت أنتِ لهذه الإجابة، بمعنى آخر إذا كررنا السؤال بذاته عن هذه السيارة بعينها ولكن لشخص آخر أقل منك في المستوى المادي، فهل يمكن أن نتوقع نفس الإجابة ؟

السيدة : بالطبع لا، لأن ما يعتبر رخيصًا عندي لا يلزم بالضرورة أن يكون رخيصًا بالنسبة لشخص آخر يختلف عني في الدخل.

سلاما : هذا هو ما أعنيه تماما، أنك بدون وعي وبدون أن تشعري قد اعتمدت مقياسًا لنفسك عندما أردت أن تحكمي على ثمن السيارة، وهذا أمر طبيعي وضروري أيضًا، وقمت بعد ذلك بتقييم الثمن بناءً على ذلك المقياس الموضوع في عقلك، وهذا الأمر يحدث تلقائيًا في كل تصرفاتنا اليومية، ولكن عندما نضع مقياسًا آخر ومختلف أيضًا عن المقياس الأول؛ فسنجد أن الإجابة قد تختلف تمامًا، مع أن المسؤول عنه لم يتغير، وأيضًا السؤال لم يتغير،ولكن الإجابة قد تغيرت نتيجةً تغير المقياس، إذًا المقياس الذي يضعه الشخص لنفسه له تأثير كبير في تحديد الإجابة، وهذه ببساطة شديدة " نظرية المقياس "، والتي يمكن أن تكون سببًا أساسيًا في كثير من المشكلات التي يعاني منها المجتمع اليوم.

السيدة : كلام معقول يمكن القبول به.

سلاما : ألن تذهبي إلى العمل ؟

السيدة : لا يوجد عمل، أجازة طوال الشهر، لا تستغرب فأنا راقصة في ملهى ليلى، وفي شهر رمضان أتوقف تمامًا عن العمل حتى ينتهي، ولكني أسكن في هذا الحي و أذهب إلى العمل يوميًا من هذا الطريق، ولكني لم ألاحظ وجودك قبل ذلك.

سلاما : سلوكيات الزحام.

السيدة (الراقصة) : ماذا ؟ سلوكيات الزحام **!**

سلاما : الشارع عادةً يكون مزدحمًا جدًا، وعندما يصل الازدحام إلى درجة معينة؛ يبدأ الإنسان تلقائيا بالتصرف على غير طبيعته، وهذا يطلق عليه سلوكيات الزحام، لأن كل شخص له المجال الحيوي الخاص به، وهو عبارة عن دائرة نصف قطرها ثلاثة أمتار تقريبًا، فإذا تداخلت طاقة أخرى من شخص آخر في هذه الدائرة يجد الإنسان نفسه تلقائيًا نتيجة لهذا التداخل قد شعر بتغير ما قد طرأ عليه، مما يؤدي إلى عدم الشعور بالارتياح، وكلما زاد التداخل على الدائرة الخاصة بالمجال الحيوي له؛ زاد معه الشعور بعدم الراحة، ويمكن أن يؤدي به ذلك الشعور إلى سلوكيات لم يكن يتخيل أبدًا أن يفعلها قبل هذا التشويش الناتج عن الزحام.

الراقصة : سلوكيات الزحام لا، لا، لا، أنت حكاية **!** سوف أحضر في وقت آخر، وأجلس معك مدة أكبر.

سلاما : على الرحب والسعة.

وبعد هذا الحديث، وقفت الراقصة واتجهت إلى سيارتها، وما زالت التمرة في يدها، وأشارت إلى سلاما إشارة وداع وهي تبتسم، وتحركت إلى السيارة، وعاد سلاما إلى شجرة الجميز مرةً أخرى، ولكن الراقصة يبدو أنها تذكرت أمرًا هامًا مما دعاها إلى العودة.

الراقصة : هل تنام في هذا المكان كل يوم ؟

سلاما : وهو يهز راسه ويبتسم نعم.

الراقصة : ألا تخاف من العفاريت ؟

سلاما : لا.

الراقصة : ألا تؤمن بوجود الجن والعفاريت ؟

سلاما : بالطبع أؤمن بوجود الجن، ولذلك لا أخاف.

الراقصة : لا أفهم **!** تؤمن بوجود الجن ولذلك لا تخاف منهم**!**

سلاما : سوف أجيب على السؤال بصورة أخرى.

سلاما : هل الجن موجود ؟

الراقصة : نعم.

سلاما : هل يريد أن يؤذيني ؟

الراقصة : نعم.

سلاما : هل يمتلك القدرة على إلحاق الأذى بي؟

الراقصة : نعم.

سلاما : هل يستطيع أن يراني ولا أستطيع أن أراه ؟

الراقصة : نعم، نعم.

سلاما : اذاً السؤال الذي يطرح نفسه، فلماذا لا يقوم الجن بإلحاق الأذى بي دون أن يشعرني بوجوده من حولي، طالما أني لا أستطيع رؤيته ؟

الراقصة : لا أعرف، ربما حتى يشعرني بالخوف.

سلاما : إجابة صحيحة ، وهذا ما يريده تمامًا، ولكن السؤال لماذا ؟

الراقصة : لأنه عفريت.

سلاما : نعم، هو عفريت، ولكنه يريد أن يشعرني بالخوف لأنه ببساطة لا يمتلك القدرة على إلحاق الضرر بي، فهو فقط يريدني أن أخاف حتى أقوم بإيذاء نفسي، لأنه لا يملك القدرة على ذلك، فالإنسان عند الخوف لا يكون قادرًا على التفكير بطريقة منضبطة كما تعود، ولذلك فهو يريد أن يدخلني في حالة الخوف هذه حتى لا ألاحظ مدى ضعفه وقلة حيلته، فيستطيع من خلال الخوف أن يؤثر على أفعالي نتيجةً لخوفي منه وليس نتيجة لأنه يمتلك القدرة على التأثير.

الراقصة : ولكنه يراني، وأنا لا أستطيع أن أراه.

سلاما : نعم هذا صحيح، ولكن السؤال، لماذا يمتلك الجن هذه الخاصية ولا يمتلكها الإنسان ؟

الراقصة : لأنه أقوى منا.

سلاما : على العكس تماما، الجن يمتلك هذه الخاصية حتى يقوم بحماية نفسه من الإنسان؛ لأنه أضعف بكثير في البنية من الإنسان، فإذا لم تكن عنده القدرة على أن يرى الكائنات الأقوى منه وهم البشر وهم يعيشون معًا في نفس العالم؛ فلن يتمكن من حماية نفسه، حتى لا يحدث إحتكاك أو تصادم بينهم؛ فيؤدي ذلك إلى إلحاق الأذى به، فهو يراني ليحمي نفسه مني وليس العكس، ولذلك قالوا لنا قديمًا إذا أردنا أن ندخل أو نمر على مكان مظلم ليس به أحد لابد من التنحنح أو إصدار أي صوت قبل المرور من هذا المكان، وذلك حتى إذا كان هناك جن في المكان لا يتفاجأ بوجودك فيهرع إلى الابتعاد من طريقك، حتى لا يتأذى، فلا يستطيع التصرف من الصدمة والمفاجاة، ويؤدي ذلك إلى إمكانية الاصطدام بك فالصورة الذهنية معكوسة؛ لأن الضعيف يحتاج أن يرى القوي ليحمي نفسه، والقوي ليس له نفس الاحتياج لأنه لن يتأثر من عدم رؤيته للضعيف.

الراقصة : أفهم من ذلك أنه يخاف مني ولكني أخاف منه أيضًا!

سلاما : الخوف شعور طبيعي لا شئ فيه، ولكن لابد من التغلب على هذا الشعور عن طريق التدريب، حتى نتمكن من السيطرة على سلوكيات الخوف، ويكون هذا التدريب قبل الوقوع في حالة الخوف، وهذا التدريب يكون بالتفكير في الأسباب التي أدت إلى الشعور بالخوف، كما فعلنا من طرح بعض الأسئلة التي يمكن أن تكون السبب في هذا الخوف، والإجابة عليها بصورة بسيطة ومباشرة، ونكرر ذلك أكثر من مرة حتى يتم إخراج المفاهيم الخاطئة التي أدت إلى الخوف من العقل الباطن و تخزين المعلومات الجديدة فيه، وعلى فكرة نحن نقول الجن والعفاريت وكأنهم مختلفين، مع أن العفاريت نوع من الجن، ولكنها تمتلك قدرات أكبر من الجن العادي.

الراقصة : أنت موسوعة ! لابد أن يكون لنا لقاءات أخرى كثيرة.

سلاما : هنا أيضًا تم استخدام " نظرية المقياس "، لأنك بصورة تلقائية نتيجةً للمظاهر الخارجية تم دون وعي الافتراض أنني لا يمكن أن يصدر مني هذا الكلام، فلما سمعت كلامًا لا يتوافق مع المقياس الذي وضعته مسبقًا، حدث هذا الانبهار، ولكن لو صدر هذا الكلام مثلًا من أستاذ جامعي أومن خبير تنمية بشرية لكان الأمر مختلفًا تمامًا.

الراقصة : أرى أنك تكرر "نظرية المقياس" كثيراً، كيف توصلت لهذه النظرية إن جاز التعبير؟

سلاما : من قول النبي -ﷺ - :" خيركم خيركم لأهله"، فلما كان مفهوم الخيرية يمكن أن يختلف من شخص إلى آخر، حسم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الأمر بوضع المقياس الذي نقيس عليه هذه الخيرية، فقال ﷺ :" وأنا خيركم لأهله "، ومن هنا بدأت في الانتباه لهذا المقياس، فجعل النبي - ﷺ- حياته مع أهله هي المقياس الذي نقيس عليه الخيرية التي وردت في أول الحديث.

الراقصة : عمومًا سوف يكون لنا لقاء آخر قريبًا جدًا.

وغادرت الراقصة المكان وهي عازمة على العودة مرة أخرى.

وبذلك نكون قد انهينا اليوم الثاني من أيام سلاما تحت شجرة الجميز.

****

اليوم الثالث

كشك عم عوض

ومع بزوغ فجر يوم جديد، استيقظ سلاما مبكرًا كعادته، وذهب إلى عم عوض في الكشك، قام سلاما برص الجرائد والمجلات في أماكنها، وبعد قليل ظهر عم عوض من بعيد، ولكنه يمسك عصًا يتوكأ عليها.

وهذا الأمر يمكن أن يكون طبيعيًا في هذه السن، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة بالنسبة لعم عوض، فعم عوض له قصة مع العصا ودلالة الإمساك بها، ويمكن من خلال السطور القادمة أن نتعرف على مصدر هذه الدهشة التي ظهرت على سلاما عندما شاهد العصا في يد عم عوض.

فعم عوض يعتبر أن العصا ما هي إلا نذير شؤم يذكره بمدى تقدم العمر، وأيضًا مدى ضعف القوى البدنية، ولذلك يحاول جاهدًا أن لا يضطر يومًا من الأيام إلى الوصول لهذه الحالة والاعتماد على العصا، وعدم القدرة على الابتعاد عنها، فكلما دعت الحاجة الجسمانية والضعف البدني إلى أن يستند إلى العصا؛ قاوم هذا الاحتياج ببذل المزيد من الجهد البدني ليعوض هذا العوز وهذه الرغبة، ولكن مع مرور الزمن وأحكامه وتأثيره على كل حادث، فقد بات واضحًا ومن لازم الأمر لعم عوض أن يتوكأ على عصاه؛ حتى لا يحتاج إلى مساعدة من الآخرين، وهذا الاحتياج ربما يكون أكثر إيلامًا له من العصا التي يرفض الإمساك بها، فقد اختار عم عوض اذاً أقل الضررين كما يقال، وهذا مجرد شرح للخلفية الذهنية لمفهوم العصا بالنسبة لعم عوض، ومعرفة سلاما لهذه الخلفية.

ولذلك، فعندما شاهد سلاما العصا؛ دهش من هذا المشهد، وأراد أن يروح عن عم عوض قليلًا.

سلاما : أخيرًا عم عوض في يده عصا ! رأيت العصا في يد عم عوض قبل أن أرحل.

عم عوض : المضطر يمسك العصا.

سلاما : كنت أظنها عن قناعة.

عم عوض : قناعة! ما زلت عند قناعتي، ولكن لا نستطيع أن نحارب الزمن ونسير عكس الاتجاه، ففي النهاية؛ لا بد لنا من الاستسلام والرضوخ لحكم الزمن مهما طال العناد ومهما تعددت أشكال المقاومة.

سلاما : أظن فقط أنك غير معتاد على الإمساك بالعصا ولذلك فهي بالنسبة لك غير مريحة، ولكن بمرور الوقت ستجد أن لها فوائد كثيرة، و تندم على عدم الإمساك بها قبل ذلك.

عم عوض : فوائد كثيرة ! مفيدة أو غير مفيدة ! لن يغير من الأمر شيئًا، سبق السيف العذل.

أراد سلاما أن يغير من الموضوع ليخرج عم عوض من هذه الحالة النفسية.

سلاما : صحيح يا عم عوض، ما معنى سبق السيف العذل ؟

عم عوض : تريد أن تعرف ؟ أم أن لك غرضًا آخر؟

سلاما : المعرفة و أشياء أخرى لا مانع.

عم عوض : العذل يا سيدي هو اللوم، ومضرب المثل أن رجلًا من العرب قديما كان قد ضرب رجلا فقتله لفعل يعتقد أنه قد قام به، فلما أخبره الناس أن للمقتول عذر فيما فعل ولامه الناس على قتله له، قال الرجل سبق السيف العذل، وهكذا صارت مثلًا إلى يومنا هذا.

سلاما : و هذه العصا من أي أنواع الأخشاب ؟

عم عوض : من الخيزران الطبيعي.

سلاما : طبيعي ليس به أي دهانات ؟

عم عوض : نعم، نعم.

سلاما : ولكن توجد ملاحظة بسيطة، وهي هذه القطعة التي في أسفل العصا إنها من المطاط الصناعي وليست طبيعية.

عم عوض : كل العصي تقريبًا توجد بها هذه القطعة؛ حتى لا تتلف من الأسفل، وأيضًا لإمتصاص الصدمات عند الاحتكاك بالأرض.

سلاما : كما هي العادة في معظم ما نفعله، نفعل الشيء كما ينبغي، ثم بعد ذلك نأتي إلى تفصيلة بسيطة ونفسد كل ما فعلناه.

عم عوض : رويدًا رويدًا يا عم سلاما، ماذا حدث لكل هذا الكلام، إنها مجرد عصا تقليدية وليس بها أي شيء غير مألوف يدعو إلى هذا التعجب وهذا الشعور بالأسى.

سلاما : أنت ترى أني من عشاق العصا، واحرص دائما على أن تكون في يدي، ولكن هذا التعلق ليس عاطفيا فقط؛ ولا هو مجرد تعود على الإمساك بها، إنما عن قناعة أيضًا.

عم عوض : قناعة! حتى العصا تحتاج إلى قناعة.

سلاما : أنظر، عندما تقوم بشراء جهاز كهربائي وليكن مروحة سقف مثلًا تجد أن هناك طرفان من الأسلاك للتوصيل بمصدر الكهرباء، ولكن يوجد أيضًا طرفًا ثالثًا من الأسلاك ولكنه موصول بجسم المروحة ويسمى بالطرف الأرضي، وذلك لفائدة مهمة؛ وهي إفراغ الشحنات الزائدة التي تراكمت على جسم المروحة نتيجةً لعملية الدوران، فهذا هو تمامًا ما يحدث معنا عند التفاعل مع ما يحيط بنا في الحياة اليومية، فقد يتراكم على أجسادنا بعض الشحنات أو بعض الطاقة التي يجب أن يتم تفريغها أولًا بأول، ولذلك يجب علينا أن نكون على صلة مباشرة مع سطح الأرض عن طريق أشياء طبيعية، أي أنه لابد من وجود طرف أرضي لكل فرد فينا حتى يتم تفريغ الشحنات السلبية المتراكمة علينا إلى الأرض، ولكن على العكس تماما، نجد أننا نجتهد في عزل أنفسنا عن الأرض بكل الوسائل، فنقوم بعزل المباني بوضع عازل على الأساس تحت المباني حتى لا تتأثر بالمياه الجوفية، وأيضًا نرتدي الأحذية المصنوعة من مواد غير طبيعية، وهكذا في كثير من تصرفاتنا نكون معزولين عن الأرض، ونتيجة لذلك تتراكم الطاقة السلبية على أجسامنا، وهذا في رأيي سبب رئيسي في تفشي الأمراض النفسية وأيضًا البدنية.

عم عوض : هل يوجد ما يؤيد هذا الكلام من الناحية العلمية ؟

سلاما : هذا الأمر لا يشغلني مطلقًا، لا من قريب ولا من بعيد؛ لأنه بهذا المظهر الخارجي ونمط الحياة التي أعيشها؛ فأنا غير مؤهل تمامًا للأخذ عني أو حتى وضع ما أقوله موضع الاهتمام والتفكير، فأنا فقط أعبر عن وجهة نظري في التعامل مع الكون ولا أحاول حتى إقناع الآخرين بها.

عم عوض : وكأني أشعر أنك ربما تقصد ذلك.

سلاما : أنا فقط بدأت أعطي نفسي قدر أكبر من الحرية والتحرر من بعض القيود؛ التي عادةً ما يتقيد بها الناس، ولم ألتزم إلا بقيد واحد فقط، وهو الحلال والحرام، ولذلك لا أقلق ولا أفكر في رد الفعل، واتصرف بكل بساطة، وأصرح بكل ما يدور في عقلي من أفكار ورؤى وحلول وغيرها، ولا أدعي أنه كلام علمي ولا حتى يستحق التفكير فيه، وكل ما أتكلم به ما هو إلا وجهة نظر خاصة أتعامل بها مع الحياة.

عم عوض : أنت هكذا تعيش ملك زمانك.

سلاما : لا أدري، ربما تذكرت كلمات لجدي - رحمه الله - كان يكررها كل مناسبة تقريبًا وهي: " *نحن يا ولدي ولدنا ملوكًا وسنعيش ملوكًا ونموت ملوكًا* "، وكان يرددها بكل يقين وقناعة، وكنت في صغري غير قادر على فهم معناها، وأقول في نفسي نحن لسنا ملوكًا، ولا نعيش حياة الملوك، ولكن بعد ذلك بدأت المعاني تتضح، وعرفت أنه ربما كان محقًا، فكل إنسان يمتلك بداخله مملكته الخاصة، فإذا تمكن من الوصول إليها والتعامل من خلالها مع الكون؛ عاش عيشة الملوك حقيقةً وليس مجازًا، ولكننا لا نعلم ذلك، ولا نجتهد في كيفية البحث عنه والعيش من خلاله، فالملك في الحقيقية هو أن تملك التصرف وفقًا لاختياراتك التي تختارها بمحض إرادتك، فالحياة ما هي إلا اختيارات بين البدائل، فإن الدنيا ما هي إلا سوق كبيرة يدخل إليها الإنسان ويشاهد ما حوله من السلع المعروضة أمامه في هذه السوق، وما عليه

إلا الاختيار من بين هذه المعروضات، ثم عند الخروج من هذه السوق عليه أن يحاسب على كل اختياراته، فهو لم يصنع أيًا من هذه السلع، ولم يحضرها إلى السوق، ولم يقم حتى بوضعها على الأرفف، لقد أتم غيره ذلك كله له قبل أن يفكر هو في دخول السوق، فنحن في الدنيا نختار ما نريد ثم بعد ذلك نحاسب على كل ما قمنا باختياره، ولكن هناك اختيار أولي لابد من القيام به، ويعتبر هذا الاختيار هو الأساس الذي ستبنى عليه جميع الإختيارات التي تليه، فأولا يجب تحديد الصفة التي سوف تدخل عليها هذا السوق، فهناك أكثر من صفة متاحة تدخل بها السوق، فيمكن ان تكون موزعًا للمنتجات، أو مستهلكًا، أو موظفًا، أو مراقبًا، أو متفرجًا، ويترتب بناءً على هذا الاختيار السلوك الذي سوف تتبعه في باقي اختياراتك بعد ذلك، ومتاح أيضًا أن تجمع بين أكثر من صفة في آنٍ واحد، فيمكنك أن تكون مستهلك ومتفرج وغير ذلك، وهذا ما يحدث مع كل شخص في هذه الحياة، فهناك اختيار أولي يجب أن نبدأ به، وسوف تترتب عليه جميع الاختيارات التي تأتي بعده، وهو الاختيار بين أن تكون عبد أو تكون رب، فإذا اخترت أن تعيش عبد فعليك التحقق بصفات العبودية وإلا كنت مدعيًا، فلا يصح أن تختار العبودية ثم بعد ذلك تتصف ببعض صفات الربوبية، وهذا أمر غاية في الأهمية؛ لأنك تمتلك كامل الحرية في الاختيار من البداية، ولكن لابد أن تعرف قبل أن تختار أنه بمجرد إختيارك العبودية أو الربوبية ترتب على هذا الاختيار أسلوب حياة.

ينبغي عليك أن تعيش من خلاله؛ وإلا كنت كاذبًا، وأيضًا إذا تم اختيار العبودية؛ فيجب معرفة عدد الأرباب الذين تعبدهم، ونسبة كل رب من هذه العبودية، وكل ما ستختاره بعد ذلك من اختيارات ما هو إلا برهانًا عمليًا على مدى صدقك وكذبك في إختيارك الأول، والإثبات في أي دعوى يكون من خلال وجود شاهدي عدل يقران بصحة هذه الدعوى، وشاهدي العدل هنا هما الخوف والرجاء، فكلما ازداد الخوف والرجاء من الرب، كلما كان ذلك مؤشرًا ودليلًا على قوة العبودية لهذا الرب، فلابد من تدريب الإنسان نفسه على مهارة، وملكة التعامل مع هذا الاختيار الأولى بحيث يستطيع بعد ذلك تحديد الرب في كل فعل يقوم به، وبذلك تكون كل حركة وسكنة يفعلها من أجل هذا الرب الذي قام بإختياره، ولابد من الإشارة إلى أن الخوف والرجاء من أعمال القلوب وليست من أعمال الجوارح؛ لأن القلب بيت الرب، فلينظر أحدنا أي رب يسكن قلبه.

عم عوض : كل هذا من أجل هذه القطعة **!**

وأمسك عم عوض العصا ونزع منها قطعة المطاط بكل قوة وألقاها بعيدًا جدًا.

ضحك عم عوض وابتسم سلاما على ردة فعل عم عوض على ما سمع.

عم عوض : يمكن أن يكون في كلامك بعض المنطق، لا أدري، ولذلك فليس هناك ضرر إذا قمنا بنزع تلك القطعة ونتصل مباشرة بأمنا الأرض، ربما يثبت العلم هذا الأمر في المستقبل.

وبعد ذلك غادر سلاما وشاكو الكشك، وعادوا أدراجهم إلى شجرة الجميز.

****

اليوم الرابع

شجرة الجميز

يبدأ اليوم الرابع كما هو معتاد، ونحن الآن بعد وقت العشاء بقليل.

نرى سلاما وشاكو يجلسان جلستهم المعهودة، ينظران إلى النيل في تأمل واستمتاع واستغراق، كأن كلًا من هما له مشربه الخاص به ومتعته التي لا يشبع منها، فهذه الجلسة لا يملان منها أبدأ مهما طالت، وربما وصل الحال بسلاما إلى الإنعزال بالكلية عن الوسط المحيط، فلا يكاد يسمع أو يرى ما يدور من حوله.

ولكن الوضع يختلف بالنسبة لشاكو، فهو في المقام الأول له أولوية يعلمها جيدًا؛ وهي الحرص على عدم تعرض سلاما لأي مكروه، ولذلك فمهما ظهرت عليه علامات الاستغراق؛ فإن أذناه لا تكاد تتوقف عن الحركة لتتمكن من سماع أي صوت أو حركة يمكن أن تمثل مصدر خطر، وكذلك حاسة الشم التي يمتاز بها الكلاب، فهو تلقائيا يشم ما يدور من حوله دون عناء ودون مجهود، ولذلك إذا رأيت شاكو وهو يبدو عليه السكون فلا تغتر بهذه الصورة، فهو متحفز دائما ومستعد لأي طارئ.

وبعد فترة من التأمل، ظهرت على شاكو علامات الفرح، والتفت للخلف ثم استدار بصورة كاملة، وبدأ في هز ذيله بطريقة تدل على أنه سعيد بهذا الزائر، فمن يا ترى هذا الضيف الذي جعل شاكو يتصرف على غير عادته في استقبال الضيوف ؟

إلتفت سلاما ليعرف من هو هذا الزائر، ولكن الأهم، ليعرف ما هو السبب الحقيقي وراء كل هذه الحفاوة من شاكو ؟

طبيب العظام : السلام عليكم.

سلاما : وعليكم السلام، أهلًا وسهلًا ومرحبًا.

الطبيب : أكيد كل هذا الترحيب على لسان شاكو.

سلاما : رد السلام على لساني، وأما الترحيب فهو على لسان شاكو، ولكنه سبقني في الحفاوة بك، فلم أره بهذا السرور، وهذه السعادة قبل ذلك، إنه ممتن لما قدمته له من خدمة، وما يزال يذكر لك هذا المعروف ويريد التعبير عن شكره لك.

الطبيب : بصراحة لا أعرف من قدم الخدمة لمن ؟ ولكن على كل حال لا شكر على واجب، فأنا ما أديت إلا ما يجب فعله.

سلاما : تفضل بالجلوس.

جلس الطبيب بجوار سلاما وبينهما شاكو.

سلاما : مر وقت طويل، منذ أول وآخر لقاء لنا.

الطبيب : لا، أنا مررت قبل ذلك من أمام الشجرة؛ لأطمئن على شاكو وحالته الصحية، ولم تكن متواجدًا.

سلاما : أكيد كان هذا في وقت ذهابي إلى المسجد، فهذا هو الوقت الوحيد الذي يسمح لي شاكو بأن أذهب منفردًا.

الطبيب : بعد عدة أيام من علاج شاكو، مررت بالشجرة ونظرت إلى شاكو لأطمئن عليه، فوجدته يتحرك بصورة طبيعية، وقفت لأتأكد من ذلك، ويبدو أن شاكو قد عرفني وتذكرني، ولكنه فعل شيئًا غريبًا كان سببًا مباشرًا في تغيير جذري في حياتي، وهذا بالتحديد هو ما حضرت من أجله اليوم بعدما تأكدت من ذلك، عندما كنا في العيادة، وقبل أن تخرج نظرت إلى شاكو وطلبت منه دفع الثمن لي على ما فعلته له، وكان رد فعلي الداخلي أني افترضت عدم الأهلية النفسية أو العقلية لك، ولم أعلق على ما قلته، ولكن عندما حضرت لأطمئن على شاكو حدث شيء غريب، عندما شاهدني شاكو؛ وقف ونظر في عيني، وكأنما يريد أن يرسل لي رسالة ما، فلم أجرؤ على المغادرة، ونظرت إلى عينيه، فإذا به يصدر صوتا يشبه صوت عواء الذئب، وقام بمد رأسه إلى أعلى كما يفعل الذئاب، وأصدر صوت عواء وليس صوت نباح كما ينبح الكلاب، وكرر شاكو هذا الأمر مرة أخرى، ولكن في هذه المرة كانت حركة الرأس أكثر ارتفاعا من المرة السابقة، ثم استدار وعاد إلى مكانه الذي كان يجلس فيه، ومنذ تلك اللحظة وقد تغيرت حياتي بصورة غير معقولة، فعندما وصلت إلى العيادة كالمعتاد دخلت إلى مكتبي وبدأت في إعداد القهوة لأبدأ الروتين اليومي من قراءة بعض المراجع أو مطالعة الأخبار أو غير ذلك من الأمور المعتادة التي أقوم بها حتى يمر الوقت وأعود إلى المنزل، ولكن الأمر في هذه المرة اختلف اختلافا جذريًا، فوجدت أن المرضى قد انهالت على العيادة بصورة غير مألوفة وغير متوقعة تمامًا، وكأنه كان هناك حائط يمنع المرضى من رؤية العيادة، فلما أزيل هذا الحائط انطلقوا إلى الداخل، ولا يوجد أي تفسير عندي لهذا الأمر إلا أنني قد تيقنت أن هذا ما هو إلا بدعاء شاكو ، وهناك شواهد أخرى أكدت لي هذا المعنى، ولكن ما دعاني للحضور اليوم بشكل خاص سؤال واحد فقط، كيف توصلت أنت إلى هذه القناعة من إمكانية أن يدعو شاكو لي؟

سلاما : ربما لم أفكر في هذا قبل ذلك، ولكن عندما حدث هذا الأمر ولم تقبل ثمنًا لعلاج شاكو، وبررت ذلك بأنك لم تفعل ذلك من أجلي أنا وإنما فعلته من أجل شاكو، فخرجت مني هذه الجملة دون وعي أو تفكير.

ابتسم سلاما، وهز رأسه كأنما يؤكد على أمر ما.

الطبيب : لماذا هذه الابتسامة ؟

سلاما : تذكرت كلمات كانت أمي- رحمها الله - تقولها :

" يوضع سره في أضعف خلقه "

الطبيب : وهذا هو ما حدث معي تماما، فقد كانت نظرتي للكلب على إنه كائن نجس، ولا ينبغي أن يقترب منه المسلم حتى لا يتنجس، ولأن وجوده أيضًا يمنع وجود الملائكة، وأيضًا نجاسته نجاسة مغلظة، وإذا أردنا أن نزيلها فلا بد من غسلها سبع مرات إحداهن بالتراب، فهذا كله ساعد في رسم الصورة الذهنية للكلب بالنسبة لي، وكنت أظن أن من يتعامل مع الكلاب أو يقترب منها إنما هو واحد من اثنين إما جاهل أو أنه لا يبالي بالصلاة ولا بالطهارة فكان الكلب في نظري من أضعف خلق الله فعلًا، ضعف مادي وضعف ومعنوي.

سلاما : ببساطة شديدة، هل تذكر هذه القصة التي ذكرها النبي -ﷺ- عن المرأة التي كانت في الصحراء واشتد عليها العطش؟

الطبيب : نعم، نعم، اتذكرها جيدًا، وسمعت الحديث أكثر من مرة في خطبة الجمعة، عندما كانت في الصحراء، واشتد عليها العطش، فوجدت بئراً، فنزلت فشربت، فلما صعدت؛ وجدت كلبًا يلهث من شدة العطش، فقالت لقد أصابه مثل الذي أصابني فبحثت عن شيء تملؤ فيه ماء للكلب فلم تجد، فأخذت الخف ووضعته في فمها، ثم نزلت البئر، وملأت الخف، ومسكته بفمها وصعدت من البئر وسقت الكلب.

سلاما : تمام ولكن هناك تكملة للحديث.

الطبيب : لا، لقد انتهت القصة على ما أذكر.

سلاما : نعم، ولكن هناك بقية للحديث، وهي التعقيب الذي قاله - الرسول ﷺ- قال:" فشكر الله لها فغفر لها".

الطبيب : نعم نعم هذا صحيح.

سلاما : هل تستطيع أن تكرر هذه الجملة الأخيرة من الحديث ؟

الطبيب : نعم، "فشكر اللهُ لها فغفر لها" .

سلاما : لفظ الجلالة مرفوع أو منصوب؟

الطبيب : شكر الله، لفظ الجلالة مرفوع بالضمة.

سلاما : إذًا، الشكر كان من الله سبحانه وتعالى للمرأة.

الطبيب : نعم، هذا مؤكد.

سلاما : ولكن هناك رواية أخرى لنفس الحديث وردت بالنصب تقول: "فشكر اللهَ لها فغفر لها"، لفظ الجلالة منصوب في هذه الرواية، في الرواية الأولى كان الشكر صادر من الله- سبحانه وتعالى- فشكر الله بالرفع، ولكن في الرواية الثانية "فشكر اللهَ لها" بالنصب فمن يكون مصدر الشكر في هذه الرواية ؟ والمشكور لها في الروايتين هي المرأة إذًا لابد من أن الشكر في الرواية الثانية التي وردت بالنصب كان صادرًا من الكلب، "فشكر اللهَ لها فغفر لها".

الطبيب : معقول جدًا، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة لكي يتوصل الشخص إلى هذا المفهوم وهذا المعنى.

سلاما : على العكس تماما، الأمر في غاية البساطة، ولكن لشدة وضوحه وسهولته لا يلتفت إليه الإنسان؛ لأننا دائما نتوقع أن الأمور أكثر تعقيدًا وتحتاج إلى تفكير متعمق، فإذا كان الأمر على قدر كبير من البساطة لا نلتفت إليه.

الطبيب : سؤال، ولكنه يعتبر غير جوهريًا، ولكن حتى يتم سد جميع التساؤلات .

سلاما : ممكن تعقيب بسيط قبل طرح السؤال.

الطبيب : أكيد! تفضل.

سلاما : في أمور الدين بشكل خاص، لا يوجد سؤال غير مهم ولكن طالما أنه قد خطر ببالك، فإنه مهم وله قيمة بالنسبة لك، ولابد من البحث له عن إجابة، وتكون هذه الإجابة مقنعة تمامًا بالنسبة لك، فإذا لم تكن هذه الإجابة مقنعة، فإن العيب إنما يكون في المفتي وليس العيب في المستفتي، ولا توجد قيود على الأسئلة مهما كانت، ولكن وضع لنا الرسول - ﷺ- قيدًا واحدًا فقط، وهو قوله ﷺ: " تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته "، ولكنه أوضح بعدها مباشرةً ما هو السبب في ذلك المنع، وقال ﷺ: " لأنه لا تحيط به فكره "، أي أن العلة من عدم التفكير في الذات الإلهية هي عدم قدرة العقل على تصورها أو حتى إمكانية التخيل، مع العلم أن عالم الخيال هو أوسع عالم خلقه الله سبحانه وتعالى، فيمكن أن يسرح الإنسان في خياله متجاوزًا حدود الزمان والمكان، ومع هذا الاتساع في عالم الخيال؛ ما زال غير قادر على تخيل ذات الله سبحانه وتعالى، لأن الإنسان مخلوق بحواسه وعقله وخياله وحتى روحه، فهي مخلوقة، ومع ذلك لا نستطيع أن ندرك ماهية الروح مع علمنا اليقيني بوجودها، ومع ذلك لا نحيط بها وهي مخلوقة؛ فكيف نحيط بخالقها؟ فهناك فارق بين المخلوق والخالق.

الطبيب : وتريد أن تقنعني أن هذا الشرح لا يعتمد على معلومات مسبقة**!**

سلاما : أعذرني فقد طال الحديث ولم نسمع السؤال.

الطبيب : في الحديث أن الكلب قد شكر الله لها، فكيف عبرت أنت عن الشكر بالدعاء ؟

سلاما : ورد في الحديث أنه ﷺ قال: " *الدعاء مخ العبادة* "، وفي رواية أخرى :" *الدعاء هو العبادة* "، فبحسب الرواية الثانية، فإن الدعاء هو العبادة، أي أن كل فعل من أفعال الطاعات ما هو إلا دعاء، ولذلك تم الربط بينهما، فالشكر أيضًا عبادة.

الطبيب : أشعر وأنت تتحدث أن الحياة بسيطة، وأن كل شيء فيها واضح وبسيط جدًا ولا يحتاج إلى كل هذه التعقيدات.

سلاما : أظن أن السر يكمن في شجرة الجميز.

ضحك الطبيب بصوت مرتفع، وابتسم سلام، ونظر إلي الطبيب وهو يشعر أن الضحكات ما هي إلا تنفيس عما يدور في داخله من قيود يريد أن يتحرر منها.

سلاما : هناك بعض الأقوال المتوارثة تلخص هذا الأمر من أوله إلى آخره، ولكننا لا نتوقف عندها، وهو قولهم: " *الدنيا تلاهي مليانه ملاهي تركوها كما هي* "، فهذه الجملة لخصت بشكل دقيق و بسيط حال الدنيا، وحال من يعيش فيها بتعبير يفهمه كل الناس.

الطبيب : هل لي أن أسأل سؤال شخصي.

سلاما : طبعًا!

الطبيب : كيف تصلي وتذهب إلى المسجد و لعاب الكلب يمكن أن يكون قد نجس ثيابك أو بدنك؟

سلاما : المذهب المالكي يرى أن كل ما يخرج من الحي فهو طاهر، إلا فضلات الإنسان، ولذلك فعندما يبتلى الإنسان بشيء من المختلف فيه فعليه أن يقلد من أجاز.

الطبيب : الحياة أبسط بكثير مما كنت أظن.

ووقف الطبيب وودع سلاما وشاكو؛ وغادر شجرة الجميز.

و بذلك نكون قد انتهينا من اليوم الرابع.

****

اليوم الخامس

في هذا اليوم سوف نبحر في شريط الذكريات الخاص بسلاما، ربما استطعنا أن نعرف كيف وصل به الحال إلى شجرة الجميز.

ولكن قبل البدء، علينا أولًا أن نوضح أن ذكريات الإنسان تكون في عالم الخيال، ولذلك فهي خارج نطاق الزمن، فمثلًا إذا قضى سلاما وقتًا قصيرًا في التذكر، فنحن عندما نريد أن نحكي هذه الذكريات نجد أننا نحتاج إلى صفحات وصفحات؛ لأننا في عالم الواقع و تحت مقصلة الزمن، ولكن شريط الذكريات لا يخضع لعامل الزمن.

ولذلك فنحن في اليوم الخامس سنحكي شريط الذكريات عن طريق المشاهد، كل مشهد عبارة عن عدة لقطات من هذا الشريط .

ونعود أدراجنا إلى اليوم الخامس...

شجرة الجميز

يجلس سلاما كعادته وبجانبه شاكو ينظران إلى النيل، وشعر سلاما بشيء ما في جيبه الخلفي، ويبدو إنه قد نسي ما وضعه بداخله، فمد سلاما يده إلى جيبه وأخرج هذا الشيء؛ فإذا بنا نرى بطاقة الرقم القومي الخاصة بسلاما، فأمسكها بيده وبدأ يقرأ ما هو مكتوب من البيانات.

الإسم : سلاما الطيب المصري

وعلى الوجه الآخر، نقرأ الوظيفة فنجد أن الوظيفة هي مهندس حر.

إذًا سلاما مهندس وخريج كلية هندسة، ولكن ما الذي أوصله إلى هذا الحال ؟ أو ما هي الأحداث التي مرت به ودفعته إلى سلوكه هذا ؟

وبعدما طالع سلاما البطاقة من الوجهين، أسند رأسه إلى شجرة الجميز وجلس جلسته المعتادة، وبدأ في استرجاع الذكريات، أو بمعنى آخر بدأنا بالغوص في ذكرياته، وسوف نبحر معًا ونتعرف على بعض المشاهد واللقطات من بحر الذكريات الخاصة به.

"المشهد الأول"

من شريط الذكريات

بيت البلد

مشهد لبيت ريفي كبير له حديقة وفناء أمامي، ويحيط به أسوار مرتفعة، ويبدو من الشكل الخارجي للبيت أنه بيت لرجل ثري أو لعائلة ميسورة.

وهذا البيت هو بيت الحاج الطيب المصري والد سلاما، وهو رجل ميسور الحال.

ونشاهد بجانب سور الحديقة شاب سمين، يرتدي جلباب بلدي، يجري بهمة ويبدو عليه الإرهاق، وهذا الشاب هو عطية صديق سلاما المقرب.

دخل عطية من باب الحديقة؛ ويبدو أنه معتاد على المكان، وأيضا على أهل المنزل من جرأته في الدخول دون تردد، دخل عطية إلى المنزل فيجد أم سالم تجلس في قاعة الاستقبال، وأم سالم هي أم سلاما، وسالم أخو سلاما الأكبر والوحيد.

عطية : السلام عليكم.

أم سالم : وعليكم السلام، أهلا يا عطية، لماذا كل هذه العجلة ؟ اهدأ قليلًا وخذ نفسًا حتى تستطيع التحدث.

سالم : ماذا حدث ؟ هل حدث مكروه لك أو لأحد من أهلك.

عطية : نتيجة الثانوية النهاردة أين البشمهندس ؟

أم سالم : في الصومعة.

سالم : باشمهندس ! ننتظر أولًا ظهور النتيجة والتنسيق.

أم سالم : جميع أهل البلد يطلقون عليه البشمهندس من صغره.

سالم : دعونا لا نستبق الأحداث، تظهر النتيجة أولًا وبعد ذلك يكون لنا كلام.

أسرع عطية إلى الصومعة ليخبر سلامًا بظهور النتيجة.

والصومعة هي الغرفة الخاصة التي يجلس فيها سلاما لتنفيذ بعض الاختراعات التي عادةً لا يكتب لها النجاح، وهذه الصومعة هي غرفة مستقلة في الفناء الخلفي للبيت.

الصومعة

يصل عطية إلى باب الصومعة وينظر إلى الداخل؛ فيجد سلاما مستغرقا في اختراعه الجديد، ولم يشعر حتى بوجوده، فدخل عطية على أطراف أصابعه، واقترب من سلاما، وفجأة وضع يده على كتفه بقوة وصاح بصوت مرتفع.

عطية : أخيرًا وجدتك.

إرتبك سلاما من المفاجئة، ونظر إلى عطية، وأخذ نفسًا عميقًا.

سلاما : عطية الغبي !

غضب عطية بعد سماع هذا اللقب.

عطية : لا تناديني بالغبي مرةً أخرى، أنت من أطلق علي هذا الإسم ومن وقتها وجميع أهل البلد لا يعرفونني إلا بعطيه الغبي.

سلاما : هذا ليس اسمًا، إنما هو مجرد لقب لكي نستطيع التفريق بينك وبين عطية الحمار ليس إلا، وليس المقصود به أبدًا الإساءة.

عطية غير مقتنع بهذا الكلام، ولكنه لا يكترث ولا يهتم بكلام الناس من الأساس.

عطيه : المهم، اليوم نتيجة الثانوية.

سلاما : وماذا بعد ؟

عطية : لابد من الذهاب إلى المدرسة لمعرفة النتيجة.

سلاما : أنتظر ساعة واحدة فقط؛ وستجد أن النتيجة بالكامل ستصل إلى البيت ومعها جميع المدرسين والناظر أيضًا.

عطية : متأكد من النتيجة لهذه الدرجة وأيضًا من المجموع ؟

سلاما : شيء مفروغ منه.

عطية : إذًا سوف أذهب بمفردي.

سلاما لا يريده أن يذهب إلى المدرسة، ويريد منه الإنتظار حتى يقوم بتجربة الإختراع الجديد عليه.

وذلك لأن عطية هو الشخص الوحيد الذي يتمكن سلاما من التأثير عليه لتجربة إختراعاته الجديدة وفي كل مرة يقنعه بطريقة أو بأخرى.

سلاما : لماذا تريد أن تذهب لتعرف النتيجة ؟ أنا سوف أجعلك تدخل التاريخ من أوسع أبوابه، أنتظر و سأجرب عليك تجربة بسيطة للاختراع الجديد، ولن تحتاج بعدها إلى نتيجة، ولا حتى إلى الجامعة، وسوف تصبح من كبار المستكشفين ومن كبار العلماء.

عطية : لاااااا ! كما حدث لي في المرة الأخيرة، عندما أجريت التجربة وتعرضت حينئذٍ للإصابة، لا أريد أن أدخل التاريخ ولا حتى الجغرافيا اتركني وشأني.

وبدأ عطية في الاستدارة للخروج من الصومعة، ولكن سلاما يشعر بالضيق لأنه يريد تجربة الاختراع فأراد أن يغيظ عطية.

سلاما : على فكرة عطية الحمار أفضل منك مائة مرة.

عطية : أكيد طبعًا! لأنه حمار.

****

"المشهد الثانى"

بيت البلد

يودع سلاما أم سالم وذلك للذهاب إلى الجامعة في القاهرة، وقد بدء العام الدراسي، والتحق بكلية الهندسة كما هو متوقع.

ولكن ما جعلنا نتوقف في هذا المشهد، الحالة العاطفية التي تربط أم سلاما بولدها سلاما، يبدو وكأن سلاما ما زال طفلا، وأمه لا تريد أن تتركه يبتعد عنها، فهو لم يبتعد عنها أبدأ منذ ولادته، فهذه أول مرة يغيب فيها سلاما عن حضن أمه لهذه المدة الطويلة، مع إن هذه المدة الطويلة ما هي إلا خمسة أيام في الأسبوع فقط، يغيب فيها سلاما في الكلية ثم يعود بعدها إلى البلد، ولكن هذه المدة بالنسبة لأم سالم وقت طويل جدًا لم تتعود عليه ولا تعرف كيف سيمر كل هذا الوقت دون أن ترى سلاما وتطمئن على أحواله، فنرى خليط من المشاعر المداخلة، فأم سلاما لا تدري ماذا تفعل، ولا كيف تداري خوفها عليه؛ حتى لا يبدأ سلاما أول أيامه في الجامعة وفي الغربة وهو يشعر بالقلق عليها، فهي تحاول جاهدة أن تظهر الأمور وكأنها طبيعية، ولا يوجد ما يدعو للخوف أو الارتباك، ولكن الصب تفضحه عيون كما يقولون، وسلاما يدرك ذلك، ويحاول أن يساعد أمه في إخفاء قلقها وحزنها على فراقه.

سلاما : كأني ذاهب إلى المريخ يا أم سالم، كلها خمسة أيام وسأكون هنا، الأمر بسيط جدا، المهم في هذه الأثناء تتفرغين لسالم وننتهي من موضوع العروسة الذي لا يريد إنهائه.

سالم : الآن أصبح سالم تحت المراقبة المشددة، كانت أم سالم مشغولة عني بوجودك يا هندسة، الآن تفرغت لي و للعروسة، هكذا لا مفر ولا مهرب.

****

"المشهد الثالث"

كلية الهندسة

يقف سلاما مع زملائه ينتظرون المحاضرة التالية، تتقدم ميادة زميلة سلاما وتضع يدها على كتفه من الخلف بصورة مطابقة تمامًا لما كان يفعله عطية .

سلاما : عطية الغبي مرة أخرى.

ميادة : عطية الغبي ! هل هذا الجمال وهذه الأناقة والشياكة يقال لها عطية الغبي !

سلاما : نفس الطريقة، ونفس الأسلوب عموما، نقدم خالص الإعتذار أهلًا يا شياكة، أهلًا يا أناقة، تحت أمرك يا هندسة ؟

ميادة : لقد فاتني المحاضرة السابقة وأريد أن تشرحها لي.

سلاما : بكل سرور، أكيد تعرفين قائمة الأسعار ؟

ميادة : نعم أعلم جيدًا، ومستعدة تمامًا.

يبتعد سلاما عنها قليلا، ويبدأ في النظر إليها من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، ويقوم بالإلتفاف من حولها.

ميادة: ماذا تفعل ؟

سلاما : هذا السؤال يدل على أنك لا تعرفين شيئًا عن قائمة الأسعار.

ميادة : وما علاقة قائمة الأسعار بما تفعل ؟

سلاما : نبدأ من الأول قائمة الأسعار يا سيدتي الفاضلة لشرح أي جزء من المنهج، وهذا بالطبع خاص بالفتيات؛ لأني لا أشرح إلا للفتيات.

- **أولًا** ... البنت الجميلة مجانًا.
- **ثانيًا** ... البنت متوسطة الجمال مشروب.
- **ثالثًا** ... البنت العادية وجبة إفطار.

ميادة : إذًا، كنت تحدد السعر ؟

سلاما : تمام، هكذا تكوني قد استوعبت القائمة بصورة ممتازة.

ميادة : فما هي النتيجة اذاً ؟

يأخذ سلاما نفسًا عميقًا، ويستغرق بعض الوقت في التفكير، ويهز رأسه وينظر إليها مرةً أخرى.

ميادة : كل هذا الوقت لتحديد السعر!

سلاما : مشروب ساخن.

ميادة : متوسطة الجمال ! مع إني جميلة الجميلات لكن لا بأس، ولكن لو كانت البنت غير جميلة بالمرة ماذا ستفعل ؟

سلاما : عندئذ المشروب والإفطار على حسابي ولكن بشرط واحد فقط، وهو ألا أراها مرة أخرى.

ضحكت ميادة من هذا التعليق الغير متوقع.

ميادة : موافقة، موعدنا بعد انتهاء المحاضرة في الكافتيريا.

كافتيريا الكلية

يجلس سلاما على إحدى الطاولات، وينتظر في الميعاد، فتظهر ميادة من بعيد، ومعها صديقتها إيمان، يتقدمان نحو سلاما.

ميادة : إيمان صديقتي، وهي أيضًا قد فاتها المحاضرة وتريد حضور الشرح، وقد أخبرتها بالأسعار، وهي موافقة عليها تمامًا.

وقف سلاما وهو ينظر إلى إيمان منبهرا بها، وكأنه دخل في عالم الخيال، ولا يكاد يسمع ولا يرى ميادة وهي تتكلم، وذهب مسرعا إلى الكرسي المقابل له، وقام بسحبه للخلف لتجلس إيمان عليه ، ثم عاد إلى مكانه وما زالت ميادة تتكلم ولكن دون أي رد فعل من سلاما.

تضع ميادة يدها أمام وجه سلاما وتحول بينه وبين النظر إلى إيمان؛ لأن إيمان بدأت تشعر بالإحراج من تصرفات سلاما ونظره إليها بهذه الطريقة، نظر سلاما إلى ميادة وهو غير سعيد بما فعلت.

ميادة : أخيرًا أين كنت ؟

سلاما : كنت في الجنة وخرجت منها الآن.

ميادة : عمومًا أكرر ما قلته مرة أخرى؛ لأنني كنت في الدنيا وأنت في الجنة، فأكيد لم تسمع ما قلته.

سلاما : تفضلي يا هندسة.

ميادة : أخبرت إيمان بقائمة الأسعار وهي موافقة عليها ومستعدة .

تعجب سلاما من كلام ميادة عن قائمة الأسعار الخاصة به.

سلاما : من يجرؤ على وجه الأرض أن يحكم على حورية من الجنة ؟ هذا لا يمكن أبدًا؛ لأن الجنة خارجة عن الزمان ولها قوانين مختلفةً عن الأرض، و كل من على الأرض داخل الزمان ويخضع لقوانين الطبيعة.

ميادة : خلاااااص! أقدم أسفي واعتذاري، اذاً أنا فقط من سيحاسب !

سلاما : ولا حتى أنتي، أنتي وإيمان بدون مقابل إكرامًا لها .

ميادة : الحمد لله ، شرح بدون خسارة.

سلاما : وليس ذلك فقط، بل أيضًا سوف أقوم بشرح أي شئ لكما مجانًا حتى تمام التخرج، وأيضًا الطلبات كلها على حسابي.

ميادة : لهذه الدرجة ! اذاً متى نبدأ في تنفيذ هذا العرض.

سلاما : حالًا سوف أذهب لإحضار ما تأمرني به

ميادة : أريد أغلى الأصناف، ولا يهم ما هو المهم أن تكون أغلى أسعار.

سلاما : أوامر تحت أمرك.

نظر سلاما إلى إيمان لكي تطلب ما تريد، ولكنها لم تتكلم.

ميادة : إيمان تريد .....

يقاطع سلاما ميادة قبل أن تكمل حديثها : دعيها تطلب بنفسها، ولا تقحمي نفسك فيما ترغب أن تطلب، عليكي أن تتحلي بالأدب والمبادئ والأخلاقيات والمثل العليا.

بدأت ميادة في التوتر قليلًا والنظر إلى إيمان.

ميادة : ولكن إيمان لا تتكلم! ولكنها تسمع جيدًا، فقدت النطق بسبب صدمتها بعد وفاة والدتها، ولكنها تفهم لغة الشفاه، وأيضًا تستطيع التعامل بلغة الإشارة .

يجلس سلامة مرة أخرى متعجبًا مما سمع.

سلاما : سبحان الله ! وكأن الأقدار تلطف بنا وتعلم أننا لا نستطيع تحمل مشاهدة هذا الجمال مع سماع صوته في آنٍ واحد.

تبتسم إيمان من كلام سلاما؛ لأنها أول مرة تسمع مثل هذا التعبير بعد معرفة شخص ما حالتها من عدم قدرتها على الكلام، فهو أول شخص يحمد الله على ذلك، ولا يشعرها أنها حالة مرضية أو يدعو لها بالشفاء كما هو معتاد دائما، ولكنه على العكس تمامًا عبر عن هذا الأمر بصورة جمالية غير متوقعة ، تنم عن شخصية غير عادية، وهذا الموقف جعل إيمان تنظر إلى سلاما نظرة مختلفة، وترى في تصرفاته الصدق وعدم الالتفات للآخرين، وأيضًا الثقة بالنفس، ومن هنا بدأت قصة سلاما وإيمان.

****

"المشهد الرابع"

إهتم سلاما كثيرًا بحركة الشفاه؛ حتى يستطيع التفاهم مع إيمان من دون إصدار أي صوت، وأصبحت علاقة إيمان وسلاما علاقة فريدة من نوعها، وتوطدت العلاقة بينهما، فلا تكاد ترى واحدًا منهما دون الآخر، وكأن كلا منهما كان يبحث عن الآخر، فما لبث أن وجده حتى تشبث به وبصورة فورية ارتبط الاثنان ارتباطًا روحيًا ونفسيا، فلا يفترقا إلا عند الذهاب إلى المنزل.

ومع الوقت بدأ سلاما بالتقليل من الكلام شيئًا فشيئًا دون أن يشعر، وأصبحت لغة الشفاه والأحاسيس التي تنم عنها هي الأساس في التعامل بينهما، وبمرور الوقت؛ أصبحت لغة العيون هي لغة التفاهم، وصار الصمت هو السمة السائدة عندما يلتقي سلاما وايمان، فإما أن يحرك أحدهما شفتيه أو ينظر فقط إلى الآخر، فيعلم ما يريده منه وما يدور بداخله، ويمكن أن يستمر ذلك لساعات طويلة دون أن تصدر أي حركة أو حتى صوت.

ومن هنا بدأ سلاما في تعلم الاستمتاع بالصمت وحسن الاستماع للآخر، وإدراك الوسط المحيط والتعامل معه من خلال الحواس الأخرى غير اللسان وغير الكلام، فأصبح لا يهتم بالكلام بقدر اهتمامه بالسماع وبالصمت، وأيضًا بدأ بالتركيز على حركات الجسد وتعابير الوجه؛ مما اكسبه القدرة على معرفة الشخصية بمجرد النظر إليها.

****

"المشهد الخامس"

سيارة إيمان

يجلس سلاما بجوار إيمان في سيارتها، وهما في طريقهما إلى منزل إيمان لمقابلة والدها مصطفى الهلالي.

وهذه وهي المرة الأولى التي يقابل فيها سلاما والد إيمان.

يبدأ سلاما بالكلام بصوت مرتفع على غير عادته عندما يكون مع إيمان، ولكن ذلك لأن إيمان لا تستطيع النظر إليه وهي تقود السيارة.

سلاما : أتعرفين؟ لقد تعلمت منك أشياء كثيرة لم تكن أبدًا في نطاق اهتماماتي.

تبتسم إيمان؛ لأنها تشعر أن سلاما ربما يبالغ كثيرا في هذا الأمر.

سلاما : أتحدث بصدق، فقد تعلمت منك متعة الصمت فوائده، وأيضًا تعلمت حسن الاستماع والإنصات، وقد كنت قبل ذلك أهتم كثيرًا بالحديث؛ بغض النظر عن مدى أهمية هذا الكلام من عدمه، وكانت الرغبة في الحديث وشهوة الكلام طاغية بصورة كاملة على باقي الحواس عندي، فأكاد لا أشعر بوجود حاسة السمع ولا البصر ولا غيرها من الحواس، فقد طغت شهوة الكلام على باقي الحواس وكنت في أغلب الأحيان لا أستطيع إدراك ما حولي بصورة صحيحة؛ لأن الحواس التي أحتاج إليها في الإدراك أصبحت غير قادرة على العمل بكامل طاقتها؛ لتوغل اللسان عليها وعدم اهتمامي بتفعيلها

أو استخدامها بصورة دائمة، فعندما سكت اللسان؛ كان هناك وقت وفرصة ذهبية لباقي الحواس أن تستعيد مكانتها الطبيعية التي خلقت عليها، ومن ثم بدأت أشعر وأحس وأسمع وأرى بطريقة مغايرة تمامًا لما كنت عليه قبل الاعتياد على كبح اللسان والاستمتاع بـ الصمت.

نظرت إيمان إلى سلاما وهي تبتسم، ومعجبة بما سمعت من وصول سلاما لهذه الحالة من الصفاء والروحانية.

سلاما : ألا يوجد ما يمكن أن نسمعه في هذه السيارة ؟

تبدأ إيمان في تشغيل الأغنية المفضلة لكل منهما وهي صوت كوكب الشرق أم كلثوم وهي تشدو برائعة **"حكم علينا الهوى"**

السعد وعد يا عين والإسم نظرة عين

وأنا وإنت روح مفرمة كان حظها من السما

واتجمعوا القلبين وآه يا سلام ع الهوى

آه يا سلام سلم يا سلام خلانا من قلبنا بالفرحة نتكلم يا سلام

وآه يا ليلي آه، ع الوعد والمقسوم

يا ليل يا عيني آه، ع الوعد والمقسوم

لا تحوشه لا ولا آه ما بين عيون و قلوب

حكم علينا الهوى نعشق سوا وندوب

صدق اللي قال الهوى فوق الجبين مكتوب

****

وعند ذلك المقطع؛ وصلت السيارة إلى بيت إيمان.

إيمان : وصلنا الحمد لله، تفضل يا هندسة.

ينظر سلاما إلى البيت، فإذا به يرى فيلا كبيرة أو لنقل قصر من القصور القديمة، وله حديقة ممتدة من جميع الجهات، وفيه عدد من الأشجار النادرة والمتنوعة، والتي عادةً لا توجد في البيئة المصرية.

سلاما : ما شاء الله قصر يا هندسة! ولكن من يتعامل معك لا يشعر أبدًا بهذا الثراء، وعلى العكس يشعر أنك من الغلابة أمثالنا.

تبتسم إيمان؛ لأنها تعلم أن سلاما لا يقيس الأمور بهذا المقياس المادي ولا يقيم الإنسان بناءً على مدى فقره أو غناه.

تطلب إيمان من سلاما الدخول داخل المنزل، لكن سلاما يفضل البقاء في الحديقة إذا كان ذلك ممكنًا، فأشارت إيمان بإمكانية ذلك؛ إذا كانت تلك رغبته.

ذهبت إيمان لإخبار والدها بوصول سلاما، وقف سلاما ينظر إلى الحديقة وتنوع أشجارها وندرتها بالنسبة للبيئة المصرية، وأيضًا التنسيق المبدع للزهور والنباتات.

بدأ والد إيمان مصطفى الهلالي يظهر من بعيد، فتقدم سلاما نحوه وذهب إليه عندما رآه.

مصطفى الهلالي : أخيرًا البشمهندس سلاما الطيب المصري، أنا أعرفك من أول يوم تقابلت فيه مع إيمان، وأيضًا أعرف قائمة الأسعار الخاصة بك.

سلاما : حتى قائمة الأسعار، هكذا تأكدت أنك تعرف كل صغيرة وكبيرة في الجامعة، وليس عني فقط.

مصطفى الهلالي : أنا صديق إيمان المقرب، فلا يوجد أي أسرار بيننا.

سلاما : اذاً لن يفلح أبدًا التظاهر بشخصية أخرى.

مصطفى الهلالي : وهذا جيد؛ لأنه حدث في أول لقاء لنا.

لاحظ الهلالي إعجاب سلاما البالغ بالحديقة وتركيزه على كل تفصيلية فيها، مما يدل على معرفة جيدة بقيمة هذه الأشجار التي تم إحضارها من جميع أنحاء العالم تقريبًا، فهذا إنما يدل على أن سلامة على قدر كبير من الثقافة الخاصة بالنباتات والأشجار.

الهلالي : معظم أوقاتي أقضيها في هذه الحديقة، أكاد لا أشعر أبدًا بالزمن، وكأنها الصومعة التي أتحنث فيها.

سلاما : الصومعة **!**

الهلالي : لماذا كل هذا الانجذاب لهذه الكلمة ؟

سلاما : تذكرت الصومعة الخاصة بي في البلد، وكنت أيضًا أجلس فيها بالساعات وربما بالأيام ولا أشعر بالوقت أبدًا، ولكن صومعتي مختلفة تمامًا، فهناك فرق بين صومعة سلاما وصومعة الهلالي.

الهلالي : الصومعة ليست مكانًا ولا مبنى، إنما هي مجرد معنى يمكن أن يحيا فيه الإنسان في أي مكان وفي أي زمان.

سلاما : فعلًا، كل منا له صومعته الخاصة.

الهلالي : يمكن أن يتعامل الإنسان ويتعايش مع الوسط المحيط به؛ ولا يشعر أحد أنه في صومعته الخاصة يتعامل من خلالها مع الآخرين، فلكل منا صومعته التي يلجأ إليها عند احتدام الأمور وعدم القدرة على إكمال المسيرة، وعندئذٍ لابد من إعادة شحن البطارية حتى يتمكن من الاستمرار في معافسة الحياة والتعامل معها.

سلاما : نعم ، هذا صحيح.

الهلالي : أريد أن أعرفك بنفسي.

يتحفز سلاما لسماع الهلالي، ويريد أن يطفي شيئًا من المرح.

سلاما : ولكن بعد اذنك؛ أريد التركيز والشرح المستفيض للمرحلة التي تمكنت فيها من الوصول لهذا الثراء وهذا القصر.

ضحك الهلالي ووضع يده على كتف سلاما، وطلب منه التجول معه داخل الحديقة.

الهلالي : كان أبي- رحمه الله- رجل أعمال من الدرجة الأولى، وله مشاريع وتجارة حول العالم على شاكلة رجال الأعمال الذين تراهم في السينما و المسلسلات، وقبل وفاته بمدة ليست بالقليل؛ بدء في تعليمي كيفية إدارة الأعمال حتى أصبحت أستطيع إدارتها بمفردي، وربما أكون قد تفوقت عليه أيضًا، وقد أوصاني بالمحافظة على الأعمال وأن أقوم بالحرص على أن أنميها حتى لا يضيع مجهوده هباء، وأخذت على عاتقي تنفيذ وصية أبي، وانهمكت في العمل حتى أصبحت وكأني آلة بشرية لا أقيس الأمور إلا من خلال المكسب والخسارة، وتبعًا لذلك أصبحت مشاعري أيضًا مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بهذا المقياس، فأصبح الفرح والحزن، والحب والكره، والقبول والرفض، وغير ذلك من الأحاسيس والمشاعر، مرتبط فقط بمبدأ الربح والخسارة، ومع ذلك ملتزم دينيًا على قدر الإمكان، إلى أن جاءت اللحظة الفارقة التي لم أستطع بعدها أن أكمل حياتي كما كانت، وكان لابد من إعادة التفكير مرةً أخرى في كل شيء.

سلاما : أكيد حدثًا له شأن وغير اعتياديً.

الهلالي : على العكس تماما، حدث عادي جدًا، يحدث كثيرًا مع كل رجال الأعمال تقريبا، ويمكن أن يكون قد حدث لي شخصيًا قبل ذلك عدة مرات، ولكن هذه المرة كان له بالغ الأثر في طريقة تفكيري.

سلاما : حدث عادي جدًا وحدث لك قبل ذلك! في اعتقادي سبب التأثير هذه المرة إما أن يكون صدق السامع أو صدق المتكلم أو كلاهما.

الهلالي : ربما، لا أدري، لكن هذا ما حدث.

سلاما : كلي آذان صاغية.

الهلالي : كنا في عشاء عمل في إحدى الدول الأوروبية وبعد الفراغ بدأنا بتبادل الحديث، ومن الطبيعي في هذه المناسبات وجود الخمر كعادة أهل البلد، وكان من بين الحضور رجل أعمال من كبار رجال الأعمال ممن يعدون من أغنياء العالم، فلاحظ أني لا أشرب معهم، فسألني عن ذلك، وكان ودودا جدًا، فأخبرته أني مسلم وديني يمنعني من شرب الخمر، فقدر مني الالتزام بتعاليم الدين والقدرة على التمسك به، فكان هذا بالنسبة له أمر يستحق التقدير، وهنا جاءت اللحظة الحاسمة، قال الرجل أنه لا ديني ولكنه يحترم كل المعتقدات سواء كانت تسمى سماوية أو وضعية، وقال جملة لا أعرف هل كان يقصدها أم لا، نظر في عيني بتركيز وقال " *إذا لم يكن الدين سببًا في سعادة أتباعه فلا حاجة إليه* "، فعندما سمعت هذه الجملة؛ حدث شيء ما بداخلي وأصبحت هذه الجملة تتردد في ذهني، وكأني أراها مكتوبة أمامي، وحاولت أن أتجاهلها لكن دون جدوى، وكأنما جاء الرجل بمعول وهدم الأساس الذي تبني عليه معتقداتي الدينية، ومن لحظتها وقد تغيرت أحوالي جملة وتفصيلًا، ومن هنا بدأت الرحلة .

حضرت إيمان لتخبرهم بالانتهاء من تجهيز الطعام.

الهلالي : للحديث بقية، ولكن بعد العشاء إن شاء الله.

غرفة الطعام

يجلس الهلالي على رأس السفرة، وسلاما عن يمينه، وإيمان عن يساره، وبدأ الجميع بتناول الطعام.

الهلالي : لقد تعرفت علي الهلالي بصورة تعتبر وافية، وأنا أريد أن أتعرف على سلاما تماما بنفس القدر.

سلاما : سلاما الطيب المصري.

الهلالي : هذا ما أعرفه ويعرفه الآخرون، أريد التعرف على سلاما الذي لا يعرفه غير سلاما.

سلاما : لكن بشرط واحد فقط ، بعد الانتهاء من الأكل.

ضحك الهلالي وإيمان من هذا التعبير.

الهلالي : تذكرت قصة كان يحكيها أبي - رحمه الله-، كان يوجد رجل بخيل، وإذا صادف وحضر ضيف أثناء تناول هذا البخيل الطعام؛ حاول هذا البخيل أن يتفنن في إلهاء الضيف بالحديث حتى لا يتمكن من الأكل، وفي أحد الأيام حضر ضيف، وهو يأكل وكان هذا الضيف قد مات أبوه بصورة مأساوية، وكانت هذه الحادثة لها تأثير نفسي سيئ على الضيف، فشرع البخيل في سؤال الضيف عن حادثة وفاة أبيه، فترك الضيف الطعام وبدأ في شرح الحادثة بالتفصيل حتى انتهى من سرد تفاصيل القصة، فإذا به يرى البخيل وقد فرغ من الطعام ولم يتبقى منه شيئًا فعزم أن يرد له الخدعة التي أوقعه فيها، وقام الرجل بدعوة البخيل إلى الطعام ليرد له الخديعة التي أوقعه فيها، وعند الطعام طلب الرجل من البخيل أن يذكر له كيف مات أبوه، فرد البخيل بجملة واحدة فقط : مات فجأة.

واستمر في تناول الطعام حتى نهايته.

سلاما : أعرف هذه القصة جيدًا، ولذلك أخذت الموعظة منها.

ضحك الجميع واستمر الحديث.

الهلالي : أتعرف أن البخل هو من أسوأ الصفات على الإطلاق.

سلاما : لهذه الدرجة !

الهلالي : نعم لهذه الدرجة، كان لي أحد الأصدقاء، و له مدير مكتب شعلة من النشاط والتفاني، فقلت له في إحدى الزيارات إن هذا الرجل متفاني جدًا في عمله، ويبدو أنه يحب، ولكنه قاطعني قبل أن أكمل الجملة وقال: نشيط ممكن، متفاني ممكن، ولكن يحب لا يمكن أبدًا، فتعجبت من هذا الكلام ومدى قناعته به، وسألته لماذا كل هذه القسوة في الحكم على الرجل، قال: لأنه بخيل، والبخيل غير قادر على الحب؛ لأن الحب هو العطاء بلا مقابل، والبخيل لا يمكن أن يستوعب هذه المعادلة التي تكون في إتجاه واحد فقط.

سلاما : البخيل لا يحب! يعني بخل مادي وبخل معنوي.

الهلالي : هناك سؤال شغل العلماء قديمًا، وهو ما الذي جعل أمة العرب مؤهلة لتكون أهلًا لتلقي آخر الرسالات السماوية ؟

سلاما : فعلًا سؤال مهم، ويمكن أن نتعرف من خلاله على سؤال آخر لا يقل أهمية عنه، وهو ماذا فقد العرب في هذا الزمان حتى وصلنا إلى مانحن عليه ؟

الهلالي : عندما بحث العلماء في ذلك، وجدوا أن هناك صفتين امتاز بهما العرب قديمًا عن سائر الأمم في ذلك العصر.

سلاما : صفتين فقط **!**

الهلالي : نعم، الكرم والصدق فقد كانت هاتان الصفتان من أسباب الفخر والعزة عند العربي القديم، والعكس صحيح تماما، فقد كان الكذب والبخل من الصفات الذميمة التي تدل على الخسة وعدم الأصل، ولذلك نجد أن أبو سفيان لم يجرؤ على الكذب عندما سأله قيصر الروم عن سيدنا- محمد ﷺ -، وكان ذلك قبل إسلام أبي سفيان، وقال قولته المشهورة، حتى لا تتحدث العرب أن أبو سفيان قد كذب، فكان الكذب عند العرب وصمة عار وسبة يحرص كل فرد فيهم على عدم الاتصاف بها.

بعد الانتهاء من الطعام، انتقل الهلالي وسلاما إلى مكتبة الهلالي.

الهلالي : هذه هي المكتبة التي تفرغت للقراءة فيها، وكل هذه الكتب ما هي إلا ثقافة عامة، ولذلك تجد أن فيها أنواع كثيرة من الكتب وليست على منوال الكتب المتخصصة كالعلماء، ولكنني أقرأ كل ما أريد، فهي مجرد ثقافة عامة ومعلومات وليست علمًا.

سلاما : وما هو الفرق اذاً بين العلم والمعلومات ؟

الهلالي : بصورة مجملة المعلومات كم والعلم كيف، هذا بصورة مبسطة على حد علمي.

يجلس سلاما والهلالي في المكتبة ويعيد الهلالي طرح السؤال.

الهلالي : نعود إلى السؤال الذي أجلت الإجابة عنه .

سلاما : اذاً لا مفر من المراوغة، سلاما إنسان في ظاهره يضحك ويمرح ويفعل كل ما يريد ولا يشغل باله بأي شيء ولا يهتم، ولكن في الحقيقة يشعر أن هناك أمرًا ما يفتقده وينتظر الوصول إليه، ولكن متى وأين وكيف لا أدري .

الهلالي : بهذا تكون قد قطعت نصف الطريق إلى الوصول؛ لأنك عرفت أن هناك شيئا ما ينقصك، فهذا هو نصف الطريق والنصف الآخر هو أن تعرف هذا الشيء وتصل إليه، ولا تظن أن ذلك بسيطًا أبدًا، فهناك أناس يعيشون ويموتون ولا يدركون ولا يخطر ببالهم أن هناك شيئًا ما ينقصهم، ويكفي أنك بدأت تفكر بهذه الطريقة في هذه السن المبكرة.

سلاما : لم تكمل الحديث، كيف أثرت هذه الكلمات التي سمعتها من هذا الرجل في حياتك وشخصيتك ؟

الهلالي : كانت هذه الكلمات تراودني من حين إلى آخر، فكأن الله أرسلها لي أنا بصورة خاصة، و بدأت الأسئلة تتوالى واحدًا تلو الآخر.

س ١ ... هل أنا فعلا سعيد كما أتمنى؟

- **ج** ١ ... بالتأكيد لا!

س٢ ... ولماذا مع أني أملك من المال ما أستطيع أن أفعل به كل ما أريد؟

- **ج**٢ ... لا أدري.

س٣ ... من أين أبدأ ؟

- **ج** ٣ ... لا أدري.

ومن هنا بدأت الحكاية، من أين أبدأ ؟ ونظرًا لأني رجل أعمال متمرس وأتعامل في السوق منذ زمن بعيد، لذلك أستطيع تحديد الهدف وأيضًا أمتلك القدرة على وضع الأسلوب العلمي للوصول إلى الهدف، وأعرف تمامًا أن ما يسمى بالفهلوة لا يمكن أن تجعلك تستمر في النجاح، فإن صادفك الحظ مرة، فلن ينفعك في المرة الثانية، و إن صدف وكانت الفهلوة أو الحظ ناجحة معك، في المرة الثانية، فهي قطعا سوف تخرب بيتك في المرة الثالثة ولذلك، فلا مجال للفهلوة أو للحظ، ولا إلى أن تترك الأمور للظروف، ولكن لابد من العلم والتخصص؛ فهو الطريق الوحيد للوصول للنجاح والاستمرار فيه؛ خاصة في المجال العملي أو في عالم الأعمال، اذاً فكانت الإجابة على السؤال من أين أبدأ ؟ هي ببساطة جدًا من العلم والتخصص.

فقمت بعمل تمثيل أكثر واقعية، وأكثر إيضاحا فسألت سؤال توضيحي، عندما أمرض أو يمرض أحد أقاربي ماذا أفعل ؟ الإجابة بالطبع أذهب إلى الطبيب أو إلى المستشفى، ولماذا أذهب إلى المستشفى؟ لأنه المكان المؤهل للكشف وتلقى العلاج، و لأنه بمعنى آخر المكان الذي يوجد به أهل التخصص في المجال الذي أريده وهو العلاج من المرض، اذاً الأمر غاية في السهولة واليسر، فبدأت بتطبيق هذا المبدأ على كل الأسئلة التي تطرأ على ذهني وأبحث لها عن إجابة، فكما أني عندما أمرض، أذهب إلى الطبيب فأيضًا؛ عندما أريد معرفة الدين أذهب إلى الشيخ، وكما أن وزارة الصحة هي المسؤولة عن العلاج والأدوية، فالأزهر؛ هو المسؤول عن علوم الدين، فالدين بالنسبة لي علم وليس معلومات، كما أن الطب علم وليس معلومات

أو ثقافة عامة، فكما أنه لا يجوز أن يأتي إنسان ويدعي أنه طبيب لأنه تمكن من حفظ مجلة الأطباء، أو طبيبك الخاص، أو لأنه يحفظ جميع الكتب الطبية التي يدرسها الطلاب في كلية الطب ويطالب بمنحة تصريح مزاولة مهنة الطب، فعلى الفور يقوم المجتمع والقوانين بمنعه وإحالته إلى المحاكمة، وأيضًا لو قام شخص بانتحال صفة الطبيب وقام بإجراء عملية جراحية ونفترض أن هذه العملية قد نجحت، ولم يصب المريض بأي أذى، وقام طبيب آخر معه تصريح مزاولة المهنة بإجراء نفس العملية لمريض آخر، ولكن العملية فشلت أي من الطبيبين سوف يحاكم ويعاقب قانونا وعرفاً، الطبيب المدعي قطعًا، مع أن العملية قد نجحت، وما فعله للمريض لم يؤثر عليه سلبًا؛ ولكنه في القانون سوف يعاقب، و في الشرع أيضًا سيعاقب، لماذا ؟ لأنه عندما باشر مهنة الطب كان متعدي، ولذلك سوف نعاقبه ويستحق العقوبة، فهذا هو الأمر بكل بساطة ويسر.

سلاما : ولكن هناك من يطلق عليهم علماء السلطان، فكيف تجاوزت هذه العقبة؟

الهلالي : بالنسبة لي هذا لم يشغلني أبدا، فهذا مجرد عنوان أجوف يضحك به قائله على عوام الناس، ولا ينطلي على مثلي أبدًا، والمقصود منه التشغيب التشويش، وأيضًا يجعل الإنسان يدخل فيما يسمى بالشك.

سلاما : ولكن منهج الشك معترف به، واعتمده ديكارت.

الهلالي : الشك عند ديكارت شك منهجي، وهو مقبول؛ لأنه ببساطة مرحلة انتقالية للوصول للحقيقة، أما الشك الذي تنطوي عليه هذه الجملة فهو شك الحيرة، والفرق شاسع بينهما، فمثلًا لو أخذنا جملة علماء السلطان وبحثنا عن المعنى المراد منها، هل المقصود أن عالم السلطان هو من يحصل على مقابل مادي من الدولة نتيجة عمله؟ لو كان كذلك كان الطبيب طبيب سلطان، والقاضى قاضي سلطان، والمدرس مدرس سلطان، وهكذا ينطبق الوصف على كل المهن في المجتمع، فإذا توقفنا عن الرجوع لعالم الدين بدعوى أنه عالم السلطان؛ فيجب أن نتوقف عن الذهاب أيضًا إلى الطبيب لأنه طبيب سلطان، ولا نذهب إلى المدرسة لأنها مدرسة السلطان، وبهذا الشكل سوف تتوقف حركة الحياة ويفسد المجتمع، وهذا لا يمكن أن يقبله عاقل، وأما إذا كان المقصود بعلماء السلطان العلماء الذين يطوعون الدين على حسب هوى السلطان؛ فهذا أيضًا احتمال وارد، ولكن نطرح سؤال، من يملك الحق والقدرة على الحكم على العلماء بأنهم علماء سلطان؟ لابد أن يكون هذا الشخص أعلى منهم في المستوى العلمي في التخصص المراد الحكم عليهم فيه، أو على أقل تقدير مساويًا لهم في الدرجة العلمية؛ حتى يكون مؤهلًا للحكم، فمن البداية من يطلق هذا العنوان يدعي مسبقًا أنه أكثر علما في الدين من هؤلاء العلماء الذين يدعوهم بعلماء السلطان، فمن أين أتى هذا الشخص بهذه الشهادة العلمية التي تتيح له الحكم على هؤلاء؟ فهو من البداية أعطى نفسه مكانة لا يستحقها، ولا يملك ما يؤهله لذلك.

يستغرب سلاما من هذا الكلام، ولكنه يريد بعض التوضيح.

سلاما : السؤال الآن، هو كيف يمكن التفريق بين الشك المنهجي وشك الحيرة ؟

الهلالي : ببساطة جدًا الشك المنهجي مرحلة انتقالية أو منهج علمي للوصول إلى العلم، بمعنى آخر، إذا بدأنا بالشك وأدى بنا إلى العلم فهذا هو الشك المنهجي، أما إذا بدأنا بالشك وأدى بنا ذلك إلى خلق مزيد من دوائر الشك؛ فهذا شك الحيرة، وهذا الشك يؤدي بك في نهاية المطاف إلى عدم اليقين والتشكك في كل ما حولك، حتى يمكن أن تصل بك إلى الشك في وجودك أنت شخصيا، ولذلك فإذا بدأنا بالشك في هيئة كبار العلماء؛ وهي أعلى هيئة علمية في الأزهر والتي يرأسها الإمام الأكبر شيخ الأزهر؛ فلابد تبعًا لذلك من الشك في الهيئات العلمية المنبثقة منها، ونستمر في هذا الشك حتى نصل إلى إمام المسجد الذي تصلي فيه.

وسوف أطرح بعض الأسئلة...

- لماذا لا نصل بالشك إلى أوقات الصلاة ومدى دقتها ؟
- ولماذا تذهب إلى المسجد مع أنك لم تتأكد من اتجاه القبلة فيه ؟ لأنها قبلة السلطان؛ لأن إدارة المساحة هي التي حددت القبلة، وإدارة المساحة تابعة للوزارة، والوزارة في حكومة السلطان، ولماذا لم تشك في الماء الذي نتوضأ به في المسجد ومدى طهارته وجواز التطهر به؟

- ولماذا لم تشك في مدى مطابقة ما يقرأه الإمام في الصلاة مع المصحف؟ مع أنك غير حافظ للقرآن ولا تمسك مصحفًا في يدك وأنت تصلي، وحتى لو أمسكت مصحفًا في الصلاة؛ فهذا المصحف الذي في يدك ما هو إلا مصحف أشرف على طباعته ومراجعته لجنة علمية من الأزهر، الذي تشرف عليه هيئة كبار العلماء؛ التي يرأسها شيخ الأزهر.
- ولماذا لم تشك في قراءة الإمام مع مراعاة أحكام التجويد والتلاوة ؟ حتى وإن كان مطابقًا للمصحف؛ فلابد من تلقي القرآن عن طريق السماع من الشيخ.
- وكيف تأكدت من قراءة الشيخ الذي علمك القرآن؟ فهو أيضًا شيخ السلطان.
- ولماذا لم تشك في إذاعة القرآن الكريم التي تستمع فيها إلى تلاوة القرآن؟ مع أن من أمر بإنشائها السلطان، وهو الرئيس الراحل جمال عبدالناصر - رحمه الله-.
- وكيف حصلت على هذا اليقين من أن من تسمع تلاوته في إذاعة القرآن الكريم ليسوا من قراء السلطان ؟ فقد تم اختيارهم عن طريق لجنة علمية تابعة للأزهر الشريف، الذي يرأسه الإمام الأكبر، الذي تدعي أنه عالم السلطان، وهكذا يمكن أن نستمر في خلق دوائر غير متناهية من الشك حتى يصل بنا الحال إما إلى التوقف كليًا عن القيام بأي عبادة أمر بها الدين؛ حتى نصل إلى اليقين، وإما ترك الدين بالكلية.

سلاما : لم أكن أتخيل أن الأمر معقد لهذه الدرجة.

الهلالي : قد سمعت من أحد الداعين إلى هذا المنهج من الشك، وكان يحاضر في أحد المراكز التي تتبنى هذا الفكر، سمعته وهو يقول " لابد في البداية أن نبدأ بالتشكيك في فساد ذيل السمكة؛ حتى إذا تمكنا من الوصول لذلك أخبرناهم بالحقيقة، وهي أن الفساد إنما هو في رأس السمكة وليس في ذيلها " فإذا أراد أحد أن يكون صادقا فيما يدعي من أن هؤلاء هم علماء السلطان، فعليه بتطبيق هذا المبدأ على جميع ما حوله، وهذا مستحيل؛ لأن حياتهم سوف تتوقف تماما، ومن هنا فإن عبارة علماء السلطان لها ظاهر وباطن، فهي عنوان براق لجذب الشخص وإيصاله إلى مضمون مختلف تمامًا عن الهدف الذي انجذب إليها من أجله، فهو في الظاهر يريد أن يتيقن من تعاليم الدين في كل شئون حياته، ولكنها في حقيقة الأمر ما هي إلا وسيلة للتشكيك في أمر الدين بالكلية، ولذلك فمن الخبرات العملية؛ وأيضًا من القدرة المكتسبة على فهم المقصد الحقيقي من وراء كل ما أسمع، لا يمكن أبدا لأي إنسان مهما بلغ من الذكاء والقدرة الكلامية أن يدخلني في هذه الدائرة الجهنمية من الشك، ويلقي كرة اللهب في حجري مع إيهامي بأنني أتصرف فيها كما أريد، لا؛ كما يريد هو، ولذلك فالأمر محسوم بالنسبة لي، ولا يوجد أي مجال لإعادة التفكير في المسلمات التي أؤمن بها.

سلاما : بهذا اليقين الجازم ؟

الهلالي : نعم، ولذلك فقد ذهبت إلى مشيخة الأزهر وبدأت الرحلة.

سلاما : ولكن لو افترضنا جدلًا أن هناك احتمال ولو ضئيل جدًا أن ما يخبرنا به الأزهر أو دار الإفتاء غير صحيح ؟

الهلالي : فأنا اذاً من أهل الفترة، لم تبلغني الرسالة؛ لأن شروط بلوغ الدعوة أن تصل الدعوة الإسلامية :

١- بصورة صحيحة.

٢- واضحة.

٣- لافتة للنظر.

٤- لسليم الحواس.

وهذه الشروط إذا لم تكن متوفرة، فأنا من أهل الفترة، وأهل الفترة ناجون، وللعلم هذا ما أخبرنا به علماء الأزهر أيضًا، فالأمر واضح جدًا و بكل بساطة، ولذلك فقد ذهبت إلى مشيخة الأزهر، لأنهم علماء سلطان بالمعنى الحقيقي، وليس بالمعنى المشوه الذي يقصده الغوغائية والدهماء، وهذا الأمر ليس بالجديد، فمن عادة من يحاول التشكيك في الإسلام من قديم الزمان، إما أن يبدأ بالتشكيك في المصادر التي نعتمد عليها، أو بالتشكيك في نقلة المصادر وهم العلماء، فهذا هو ديدنهم دائما، ولكن تختلف طرق العرض باختلاف الزمان والمكان، فكل ما يفعله هؤلاء ما هو إلا إعادة صياغة لما قاله المشككون قديمًا، وقد قام العلماء بالرد عليهم والردود مدونة في الكتب، ولكننا لا نحسن القراءة، وهناك إشكالية حقيقة عند هؤلاء المشككون، وهي أنهم لا يجهدون أنفسهم في البحث عن أطروحات جديدة لم يتم الرد عليها، وذلك لأن ردود العلماء علي هذه الأطروحات كانت وافية ومقنعة للمسلمين بدليل أن هذه الأفكار لم تجد لها صدى في الواقع الإسلامي، فقد ماتت بموت أصحابها ولم يلتفت لها أحد، وأحد تعاريف الغباء هو أن تكرر نفس المقدمات في كل مرة وتنتظر نتيجة مختلفة، ولكن هؤلاء المشككون

يراهنون على عدم الوعي الديني، وعلى العرض المبهر للأفكار التي يروجون لها، فعلى المسلم أن يهتم بإسلامه هو، ولا ينشغل بتأثير أي من هؤلاء على الإسلام، فسوف يصطدم هؤلاء بحائط القدر، فللبيت رب يحميه، فإبدأ بنفسك ثم بمن تعول، ولكن يوجد عندنا نحن المسلمين نقطة ضعف يحاول استغلالها هؤلاء، وهي عدم التفريق بين الدين والتدين، فالدين علم والتدين سلوك، ومن هنا يحدث الخلط بين العالم والعابد، فليس كل عالم عابد وليس كل عابد عالم، ولذلك فمن أكثر الأشخاص تأثيرًا سلبيًا على المسلمين عالم فاجر أو عابد جاهل، ولذلك فهناك مسلمات لابد أن يتعلمها المسلم، ومنها أن العالم ينبغي عليك أن تأخذ بفتواه؛ ولا يلزمك أن تأخذ بتقواه إذا كان غير تقي، والعابد تأخذ بتقواه؛ ولا يلزمك أن تأخذ بفتواه إذا كان ليس عالمًا، فهذه القاعدة يمكن أن تزيل كثيرًا من اللغط الذي يمكن استغلاله من قبل هؤلاء، فهذه من المسلمات التي لابد من تعلمها هي وغيرها؛ حتى نتمكن من الفهم الصحيح، فلابد من وجود قدر مشترك من المسلمات المتفق عليها؛ حتى يمكن أن يفهم كل منا الآخر، ووجود المسلمات أمر ضروري ولازم في جميع العلوم، فنحن مثلًا في علم الرياضيات نجد أن نظرية ٣ تبنى على نظرية ٢، ونظرية ٢ تبنى على نظرية ١، ونظرية ١ مبنية على المسلمات، فإذا لم نتفق على المسلمات فلن يكون لدينا نظريات، ولذلك قالوا "*لا يصح في الأذهان شئ إذا احتاج النهار إلى دليل* "، عندما سأل الإمام علي- رضي الله عنه- عن أصعب شيء عليك يا إمام قال - رضي الله عنه-:"*تفهيم من لا يفهم* " فهذا أصعب شئ على سيدنا علي وهو باب مدينة العلم، وليس ذلك لأن هذا الذي لا يفهم غبي؛ ولكن لأنه لا يمتلك أسس الفهم السليم المتعارف عليها بين عقلاء البشر.

سلاما : ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق، لماذا كل هذا الاهتمام الحثيث على إدخال المسلم في هذه الدوائر من عدم اليقين ؟

الهلالي : لغاية مهمة جدًا، وهي عدم إتاحة الفرصة لبناء حضارة إسلامية تكون نابعة من النموذج المعرفي الإسلامي، وذلك لأن بناء الحضارات يحتاج إلى التراكمية المعرفية النابعة من هذا النموذج المعرفي المراد بناء الحضارة من خلاله، ولبيان ذلك نضرب مثالًا للتوضيح، لو وضعنا قرد في قفص، و قمنا بتعليق بعض الموز في أعلى القفص بحيث لا يستطيع القرد أن يصل إليه، ووضعنا بالداخل صندوق يمكن للقرد أن يقوم بتحريكه، ووضعنا أيضًا داخل القفص عصاة على الأرض، فماذا سيفعل القرد لكي يسقط الموز؟ سيقوم القرد بتحريك القفص إلى أسفل الموز، ثم يحضر العصا من الأرض؛ ويقوم بالوقوف على الصندوق، ويضرب الموز بالعصا التي في يده إلى أن يسقطه، ثم يأكل هذا الموز، وهذا حرفيا ما سيفعله أي إنسان إذا كان في نفس موقف القرد، ولكن ما يميز الإنسان عن القرد أن القرد بمجرد الحصول على الموز ترك العصا والصندوق وذهب، ولكن الإنسان سيختلف عن القرد في هذه الجزئية، لأنه يستطيع أن يربط المعلومات ويتعلم منها، ويكون معلومات تراكمية؛ ولذلك فنجد أن الإنسان سوف يحتفظ بهذه الأدوات التي استخدمها في هذه المرة ليقوم باستخدامها في المرات القادمة، وهذا ما يميز الإنسان عن القرد، فنجد أن القرد في كل مرة يبدأ من الصفر ولا يتعلم من التجارب ويبني عليها للمستقبل كما يفعل الإنسان، ولذلك من يطرح هذه الأسئلة وهذا التشكيك يريد من كل مسلم أن يهمل الخبرات التراكمية للمسلمين على مدى القرون ويبدأ من الصفر، وهكذا في كل جيل حتى لا يتمكن المسلم من بناء حضارة نابعة

من النموذج المعرفي الذي يؤمن به، فإذا بدأ المسلم من الصفر في كل شئون الحياة؛ فلن يستطيع أن يصل إلى دائرة الإيمان ولا الإحسان، ولكن غاية ما هنالك أن يظل تائهًا في دائرة الإسلام، حتى ينتهي به الحال، وقد ضيع عمره فيما لا طائل منه، لأنه لو افترضنا أنه يمتلك النية الصادقة والإخلاص؛ فلن يستطيع بأي حال امتلاك القدرة التي تمكنه من فعل ذلك، سواءً كانت قدرة بدنية أو عقلية أو زمنية أو مادية، لأنه ببساطة شديدة يريد أن يقوم بمفرده بعمل أمة كاملة لعدة قرون.

دخلت إيمان ومعها مشروب من العصير الطازج، فما لبث أن رآه الهلالي حتى توقف عن الكلام المباح.

الهلالي : هذا يكفي يا هندسة، بإذن الله لن يكون هذا آخر لقاء لنا؛ أليس كذلك ؟

سلاما : أكيد! الأكل هنا متعة طعم ورائحة ونفس.

الهلالي : الأكل ! تمام البركة في الطباخ المحترف.

يشير الهلالي إلى إيمان؛ لأنها هي التي تشرف على إعداد الطعام وأبدت إيمان علامات الثقة بالنفس والفخر بما صنعت.

سلاما : هندسة! هندسة! عقلية المهندس تختلف أكيد، وتؤثر في كل ما يفعل.

الهلالي : حتى الأكل بالهندسة! لا هنا لابد من التصحيح الأكل؛ إنما هو بالنفس، أتعرف ما هو النفس في الأكل؟

سلاما : نعم أعرف.

تفاجأ الهلالي من رد سلاما، ولكنه كان سعيدًا بذلك.

الهلالي : ما هو اذاً النفس؟

سلاما : كنت أجلس ذات يوم بجوار رجل صالح على مائدة الطعام، وكان الطعام لذيذًا جدًا لدرجة أن الحضور بدأوا بالثناء على من أعد هذا الطعام، وأن نفسه في الأكل ليس له نظير، فقال لي هذا الرجل- رحمه الله-: أتعرف ما هو النفس ؟ قلت: لا، قال لي : الإنسان يتميز عن سائر المخلوقات بأن له نفس، وهذه النفس هي المخاطبة، وكما أن الإنسان له تأثير بدني في الطعام؛ كذلك له تأثير نفسي على الطعام، ولكن بصورة غير مرئية، ولهذا فإذا أشتهي الطاهي الطعام الذي يقوم بإعداده ولكنه لا يستطيع أن يأكل منه لأي اعتبار كان؛ فإن نفسه سوف تأكل هذا الطعام، وبناءً عليه، فإنك تأكل طعامًا تم أكله قبل ذلك من نفس شخص آخر، ولذلك فإن تعبير النفس الذي يستخدم في وصف الطاهي للطعام؛ مأخوذة من النفس، أي أن نفس الطاهي طيبة فلم تؤثر على الطعام بصورة سلبية، هل كان هذا نفس المعنى الذي تقصده ؟

الهلالي : نعم، نفس المضمون.

سلاما : ولما لاحظ هذا الرجل الصالح- رحمه الله- أني مستمتع بما يقول وشغوف لسماع المزيد، أضاف : ولذلك عندما سئل أحد الصالحين عن كيف نبدأ في تحسين الخلق قال: ابدأ بالطعام، أطب مطعمك؛ فإن الطعام الطيب يولد في الإنسان طاقة طيبة تكون باعثًا له على الطاعة؛ والطعام غير الطيب يولد طاقة غير طيبة تكون باعثًا له على المعصية، والأخلاق الحسنة هي درجة الإحسان التي قال عنها ﷺ : ***" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "***

الهلالي : هذه الكلمات لابد أن تحفظ وتكتب أيضًا.

سلاما : هكذا أنا أصبحت في عداد المثقفين.

ضحك الهلالي وإيمان من تعبير عداد؛ لأنه عادةً ما يستخدم في الكوارث، فيقال في عداد المفقودين أو في عداد القتلى.

الهلالي : على العموم، أريد أن أطلب منك طلبًا.

سلاما : أكيد! تحت أمرك بكل سرور.

الهلالي : أريد منك كتابة قصيدة من الشعر؛ تصف فيها الحالة العاطفية التي تعيشها الآن.

سلاما : حالة عاطفية ! وكيف عرفت ذلك ؟

الهلالي : الصب تفضحه عيون.

سلاما : لكني لم أكتب شعرًا قبل ذلك ولم أفكر في كتابة الشعر، يمكن أن أصف لك ما أشعر به بأي طريقة أخرى.

الهلالي : لا يمكن، أريد شعرًا!

سلاما : إذًا هل تقصد قصيدة أو نتفة ؟

عندما سمع الهلالي هذا السؤال من سلاما تأكد أن حدسه كان صحيحًا، لأن النتفة من الشعر إنما هي بيتين فقط، فكيف عرف سلاما هذه الكلمة إذا لم يكن مهتمًا بالشعر، وتأكد ذلك بعد تعليق سلاما على كلامه، وأيضًا لأن كلمة نتفة لها مكانة مميزة عند الهلالي سنعرفها قريبًا.

الهلالي : ما يمكن أن يطلق عليه قصيدة.

سلاما : هكذا لابد ألا تقل عن سبعة أبيات.

وهنا نظر الهلالي إلى سلاما وتأكد أنه سينجز المطلوب في وقت قريب.

الهلالي : هذا هو المطلوب.

سلاما : سأحاول، ولكن أحتاج إلى بعض الوقت.

الهلالي : معك من الوقت حتى نهاية السنة الدراسية ما رأيك ؟

سلاما : يا مسهل، إن شاء الله، ولكن السؤال هو لماذا ؟

الهلالي : لحاجة في نفس يعقوب.

****

"المشهد السادس"

كافتيريا الكلية

يجلس سلاما مع إيمان، ويطلب منها أن تأخذ هذا الظرف وتعطيه لوالدها، ولكن دون أن تفتحه.

تأخذ إيمان الظرف المغلق وهي مرتابة مما يمكن أن يكون بداخله.

إيمان : أخبرني، ولن أتفوه بكلمة واحدة.

ضحك سلاما من هذا التعبير الذي تريد أن تقنعه به؛ لأنها فعليًا لن تتفوه بكلمة واحدة، ولكنها مع ذلك تخبر الهلالي بكل صغيرة وكبيرة.

سلاما : هكذا لابد أن أقتنع ! لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، لم تتفوه بكلمة واحدة؛ ومع ذلك يعرف الهلالي كل صغيرة وكبيرة تحدث في الجامعة، ولم تتفوه بكلمة واحدة فعلًا ! إعجاز منقطع النظير.

إيمان : ولكن لا بأس، دقائق معدودة وسأعرف ما بداخل هذا الظرف، وأيضًا دون التفوه بكلمة واحدة.

سلاما : وأنا متأكد من ذلك تمامًا.

****

"المشهد السابع"

بيت إيمان

إيمان تعطي الظرف لوالدها، يأخذ الهلالي الظرف ويفتحه.

الهلالي : بهذه السرعة، إجلسي حتى نرى ما كتب هذا النتفة.

اندهشت إيمان عندما أطلق الهلالي هذا الوصف على سلاما، فهو لم يطلقه على أحد قبل ذلك إلا عندما يمازحها وينادي عليها به.

وهذا إنما يدل على أن سلاما أصبح له مكانة خاصة عند الهلالي؛ لأن لفظة النتفة لها مكانة خاصة بالنسبة له، فقد كان أبوه يناديه بالنتفة عندما كان يفعل شيئًا يسعده، لأن والده كان يحب الشعر و يتذوقه.

تجلس إيمان في ترقب؛ ويبدو عليها الارتباك والتشوق لسماع ما هو مكتوب في هذه الورقة.

يبدأ الهلالي في تصفح الورقة، ويقرأ بصوت هادئ ويركز في كل كلمة يقرؤها.

الهلالي : قصيدة كاملة الأركان؛ كتابةً وتنسيقًا.

يا بهجة النفس

عشقت الحب أول ما التقينا.....

وعشت العمر من وقت ابتدينا

وكل الناس جادوا بالعطايا.....

ونحن بقلبنا هديًا أتينا

وهل للمرء عند البعث عقلًا.....

فنعلم هل أردنا أو أبينا

لكن قدرة المولى تجلت.....

قلوب الخلق بين أصبعينا

فإن وهب الحبيب فمحض فضل.....

وإن لم نجده فبما عصينا

وبعد البوح تنكشف المرايا.....

وعند الروح لا تسأل بأين

يا بهجة النفس عندي فيك مسألة.....

أتعمر القلب أم تسكن بين جنبينا ؟

****

يبدو أن إيمان قد استغرقت مع كلمات القصيدة، ولم تنتبه لوالدها وهو ينادي عليها بنفس إسم القصيدة، حتى كرر ذلك أكثر من مرة.

الهلالي : يا بهجة النفس، يا بهجة النفس**!**

في البداية لم تستوعب إيمان ما يقصده الهلالي من هذا النداء؛ إلى أن كرر الهلالي هذا الأمر مرةً ثالثة وهو ينظر إليها، ويؤكد ذلك بالإشارة برأسه.

الهلالي : يا بهجة النفس.

فانتبهت إيمان؛ لأنها قد تأكدت من مقصد الهلالي، فنظرت إلى أبيها مرة أخرى وهي تبتسم، وقامت باحتضانه، وبدأت إيمان في تكرار الإسم الذي أطلقه الهلالي عليها، وأخذت في ترديده بشفتيها مرةً تلو الأخرى، وهي في حالة من البهجة والسعادة.

إيمان : يا بهجة النفس**!** يا بهجة النفس**!** يا بهجة النفس**!**

ولكن في المرة الثالثة سمعت صوتًا قد خرج مع حركة الشفاه، وسمع الهلالي هذا الصوت أيضًا، صوتًا لم يسمعه من زمن بعيد، فكان لا يصدق نفسه، وكأنه يحلم**!** وإيمان أيضًا لم تستوعب هذا الصوت، و كأنهما يحلمان معًا حلمًا واحدًا في نفس الوقت، فنظرت إيمان إلى والدها في دهشة وإنكار، ولم يستطع الهلالي أن يتكلم بكلمة واحدة إلا أنه هز رأسه لتكرار النطق مرة أخرى؛ في إشارة منه إلى أن تهدأ فقط وتنطق بها مرة أخرى.

إيمان : يا بهجة النفس، يا بهجة النفس.

وازداد فرحهما عندما خرج الصوت؛ وسمعا معًا يا بهجة النفس بصوت كانا يتلهفان إلى سماعه منذ زمن بعيد.

الهلالي : الله ... الله ... الله

تبكي إيمان وتنهال الدموع من عينها، و تحتضن والدها بشدة، ولا تستطيع أن تتكلم أو تعبر عما يجول في خاطرها وما تشعر به من مشاعر وأحاسيس، ونظر الهلالي إلى السماء وعيناه تدمع ولم يزد على أن ظل يكرر.

الهلالي : الله ... الله ... الله

ومنذ ذلك الوقت ولم ينادي الهلالي إيمان إلا يا بهجة النفس، ولكن هذا الاسم خاص به هو، وغير مسموح لأحد أن يناديها به.

****

"المشهد الثامن"

بيت البلد

يجلس سلاما مع أمه ومع أخوه سالم.

سلاما : لقد حان الوقت يا سالم أن تتم هذا الزواج ونفرح جميعا.

أم سالم : حاولت معه أكثر من مرة، ولكنه لا يريد إتمام الزواج إلا بعد الإنتهاء من دراستك وحصولك على الشهادة.

سلاما : تمام! وهذا ما هو ما حدث بالفعل، نحن الآن في نهاية السنة الدراسية، ولم يتبق إلا شهرًا واحدًا فقط، وهو الخاص بالمشروع، وبإذن الله تكون الشهادة بين أيديكم، فأرى أن نذهب إلى أهل العروسة ونحدد ميعاد الفرح؛ حتى يتسنى لهم تجهيز أنفسهم، وأيضا حتى تتهيأ العروسة نفسيًا للبيت الجديد.

أم سالم : أنا أوافق على هذا الكلام.

وقبل أن ينطق سالم بأي كلمة تعقيبًا على هذا الكلام تسبقه أم سالم بقولها : تم.

وسالم يعلم جيدًا أن أم سالم عندما تنطق بهذه الكلمة بالتحديد فهذا يعني أن الأمر قد انتهى؛ ولا يوجد سبيل للرجوع عن قرارها أبدًا.

ولكن سلاما وسالم تعجبا من سرعة قولها تم، فهي لم تترك فرصة لأحد، ولم تفكر في هذا القرار، وكأنها قد اتخذت القرار قبل ذلك، ولكن طالما أنها قالت تم فلا مجال لأحد منهم أن يعقب، لأنه لا رجعة في هذا القرار أبدًا.

سالم : تم ! بهذه السرعة يا أم سالم.

أم سالم : " *الحجة وهبة والجيزة نهبة* "

سلاما : وهبة ! ونهبة !

سالم : أنا غير مقتنع بهذا الكلام أبدًا.

أم سالم : الحج وهبة أي هبة من الله، أي مهما فعلت من ترتيبات للذهاب إلى الحج لن تحج إلا إذا كان مكتوبًا لك الحج، أي أن الحج ليس بالترتيبات ولكن بالوهب، أما الجواز فهو نهبة أي لابد من إتمام الزواج بكل سرعة، وكأنك تنهب الزواج؛ لأنه كلما تأخرت في إتمام الزواج تظهر تعقيدات جديدة يمكن أن تعطل الزواج تماما.

****

"المشهد التاسع"

بيت البلد

فرح سالم في الساحة الأمامية للبيت، وسالم يجلس بجوار عمه العمدة في صدر المجلس والمعازيم والأهل والأقارب يلتفون حول العريس والضيافة والمنشد وغير ذلك من مظاهر العرس المعتادة، والمنشد وفرقته يحيون الفرح؛ وكأنما هي ليلة من ليالي المولد، فهذه عادة عائلة الطيب المصري في الأفراح والمناسبات، والمنشد يبدع برائعة :

****

دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفسًا إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاء
إلهي لا تعذبني فإني مقر بالذي قد كان مني
وما لي حيلة إلا رجائي لعفوك إن عفوت وحسن ظني
وكم من زلة لي في الخطايا وأنت علي ذو فضل ومن
أجن بزهرة الدنيا جنونًا وأقطع طول عمري في التمني
يظن الناس بي خيرًا وإني لشر الخلق إن لم تعف عني
أحب الصالحين ولست منهم لعلي أن أنال بهم شفاعة
وأكره من تجارته المعاصي وإن كنا سويًا في البضاعة

****

يقف سلاما مع بعض الأقارب لاستقبال المعازيم في مدخل البيت، وفي هذه الأجواء تأتي هند مسرعة، وهند هي الفتاة التي تساعد أم سالم في أعمال البيت، تحضر هند إلى سلاما ويبدو عليها الارتباك

سلاما : ماذا حدث يا هند ؟

هند : أم سالم تعبت ودخلت إلى غرفتها، و طلبت مني ألا أخبر أحدًا.

سلاما : ماذا حدث **!**

وكأنه سمع شيئًا لا يريد أن يسمعه، أو كأنه يرفضه في عقله الباطن ولا يريد أن يفكر في احتمالية حدوثه.

فأسرع إلى غرفة أمه، وكان يمسك في يده تليفونه؛ فتركه ولم يعبأ به، وكأن ذلك علامة على عدم التمسك بأي شيء في الدنيا إذا ما حدث مكروه لأمه.

ولأن سلاما يعرف أمه جيدًا، فلابد من وجود أمر خطير جدًا؛ لأنها لا يمكن أن تترك الفرح والمعازيم وتدخل إلى غرفتها إلا إذا كان هناك أمر ما غير معتاد.

****

"المشهد العاشر"

بيت البلد ... غرفة أم سالم

تجلس أم سالم على سريرها، و يبدو عليها الإرهاق والتعب.

يدخل سلاما مسرعًا، ولا يستطيع أن يتحدث، وتظهر عليه علامات الارتباك والقلق الشديد.

أم سالم : لا تقلق، بعض الإرهاق، الأمر بسيط لا داعي للتوتر.

سلاما : لا يبدو الأمر بهذه البساطة، هناك شيء ما لابد أن نعرفه.

وهم سلاما للخروج من الغرفة لإحضار الطبيب.

أم سالم : إلى أين ستذهب ؟

سلاما : لإحضار الطبيب.

تحاول أم سالم القيام؛ ولكنها لا تستطيع، وتشير إلى سلاما أن يعود ولا يخرج.

أم سالم : انتظر يا سلاما، لا نريد أن نفسد فرح أخوك سالم.

سلاما : ليس مهمًا على الإطلاق؛ لا فرح ولا سالم ولا المعازيم ولا أي شيء آخر، المهم نطمئن على حالتك الصحية وبعد ذلك يحدث ما يحدث، وعمومًا قد أنهينا كل شيء، ولم يتبق إلا الذهاب لإحضار العروسة.

أم سالم : اسمع... لن تذهب إلى أي مكان، ولن تخبر أحدًا بحالتي الصحية قبل أن يتم الفرح على أحسن حال، أسمعت ما قلت سمعت؟

سلاما : سمعت.

ولكن أم سالم لاحظت أن سلاما يبدو أنه غير مقتنع؛ وله رأي آخر، فأرادت أن تمنعه من فعل أي شيء يعكر صفو الفرح.

أم سالم : قل تم يا سلاما.

لا يريد سلاما قول تم؛ لأن تم بالنسبة لأم سالم كأنها عهد لا يمكن الرجوع عنه.

أم سالم : تم يا سلاما. تم!

نظر سلاما إلى أمه، فوجدها مصرة على ذلك، فلم يكن هناك بد من الإمتثال لما تريد حتى لا تغضب.

سلاما : تم.

ولما رأت أم سالم علامات الضيق وعدم الارتياح على وجه سلاما، أرادت أن تهون عليه الأمر قليلا.

أم سالم : لابد من الوضع في الاعتبار نفسية العروسة؛ حتى لا يقال أنها قدم شؤم، ولا ذنب لها في كل هذا، ولم نرى منها هي وأهلها إلا كل خير، فعلينا أن نرحم حتى نرحم، ألا تتذكر المقولة التي كان يرددها أبوك- رحمه الله - :" ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء "، " ومن لا يرحم لا يرحم ".

أشار سلاما برأسه، مؤكدًا على الامتثال لما طلبت أم سالم وعدم فعل أي شيء يخالف ما تريده .

أم سالم : بارك الله فيك يا ولدي، أرحت قلبي، الآن تذهب إلى أخيك وتقف بجانبه، واحرص على ألا يلاحظ سالم منك أي تغيير؛ حتى لا يوقف كل شيء.

تحاول أم سالم أن تسري على سلاما وتشد انتباهه بعيدًا عن حالتها الصحية؛ لأنها ترى شدة تأثره وخوفه الشديد عليها.

أم سالم : أتعرف يا سلاما من الذي أطلق عليك هذا الاسم ؟ إنه الشيخ الخضري- رحمه الله-، شيخ الطريقة التي كان ينتمي إليها ابوك، وكان ذلك في يوم سبوعك.

****

"المشهد الحادى عشر"

بيت البلد ... الساحة الخارجية

تبدأ أم سالم في تذكر ما حدث يوم العقيقة...

يجلس الشيخ الخضري، وهو شيخ الطريقة التي ينتسب إليها الحاج الطيب، يجلس في وسط الساحة وبجواره الحاج الطيب والد سلاما، ولم يكن بعد قد أطلق عليه الإسم، وفي العادة أن الشيخ الخضري هو من يسمى المولود، وكعادة الطيب المصري؛ عندما يولد له مولود أن يقوم بعمل ليلة لأهل الله في يوم العقيقة، ويحضرها شيخ الطريقة.

الشيخ الخضري : أين الولد يا حاج الطيب ؟

الطيب المصري : حالًا يا مولانا، يا ولد يا سالم، أحضر أخاك من الداخل.

سالم : حاضر.

أم سالم بداخل المنزل مع نساء القرية، ومشغولون في الطقوس المعتادة للسبوع من دق الهون والغربال والشموع وغيرها من الطقوس المتوارثة والمتعارف عليها في هذا اليوم.

يذهب سالم إلى أمه ليحضر أخاه ويمد يده ليأخذه منها.

سالم : الشيخ يريد أخي الصغير.

أم سالم : لا يا ولدي، مازلت صغيرًا، لن تتمكن من حمله.

تحمل أم سالم المولود، وتذهب به إلى الشيخ الخضري، وعندما رأى الحاج الطيب أم سالم هم مسرعًا، وحمل منها الولد، وذهب به إلى الشيخ، نظر الشيخ في وجه المولود وهز رأسه.

الشيخ الخضري : بسم الله ما شاء الله، الولد جبهته واسعة.

الطيب المصري : وما دلالة ذلك يا مولانا؟

الشيخ الخضري : هذا الولد رزقه واسع يا حاج**!**

الطيب المصري : سمعتي يا أم سالم ؟ الولد رزقه واسع**!**

تهللت أم سالم من سماعها كلام الشيخ.

أم سالم : ربنا يوسع رزقه، هذا ببركة يد مولانا.

ولكن الشيخ يستدرك ويقول:

الشيخ الخضري : ليس رزق المال؛ إنما هو رزق العقل، ندعوا الله أن يعينه عليه، إذا لم يكن عون من الله للفتى، فأول ما يقضى عليه اجتهاده.

مد الشيخ يده، وأعطى الولد إلى الحاج الطيب.

الشيخ الخضري : خذ يا أبو سلاما.

إبتهج الحضور بتسمية الشيخ للولد بهذا الاسم سلاما، وظن الحاضرون أن الاسم كما هو معتاد سلامة بالتاء المربوطة، ومنهم الحاج الطيب، وفي اليوم التالي ذهب الحاج الطيب إلى السجل المدني ليقوم بتسجيل اسم المولود الجديد، وأخبر الموظف أن الاسم هو سلامة، ولكن عندما ذهب الحاج الطيب لاستلام شهادة الميلاد؛ وجد أن الإسم مكتوبا سلاما بالألف وليس سلامة! وأراد الحاج الطيب أن يسرع في تغيير الاسم ويكتبه كما هو معتاد سلامه، ولكن الوقت قد تأخر، فطلبوا منه أن يحضر في اليوم التالي حتى يتمكن من القيام بإجراءات تغيير الاسم، وعاد الحاج الطيب إلى أم سالم وأخبرها بما حدث، ولكنها لم تنزعج وقالت كلمتها المعتادة: كله خير، وعندما سمع الحاج الطيب هذه الجملة تذكر شيئًا حدث في يوم العقيقة؛ بعد ما قام الشيخ الخضري بتسمية المولود وحضرت الصلاة، قرأ الشيخ في الركعة الأولى آية " وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما "، وفي الركعة الثانية قرأ الشيخ آية " لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيما إلا قيلًا سلامًا سلاما "، فانتبه الحاج الطيب أن هناك دلالة ما كان يقصدها الشيخ و شعر أن سلاما بالألف ربما كانت رغبة الشيخ من البداية، ولذلك لم يذهب لتغيير الاسم، واستبشر بهذا المولود، وهذا الاسم خيرًا، وبعدما ذكرت أم سالم هذه القصة طلبت من سلاما مغادرة الغرفة؛ ليكون بجانب أخيه، و ذكرته بالآية الكريمة "*سنشد عضدك بأخيك* "، ونظرت إليه نظرة وكأنها نظرة الوداع، وبالفعل، فكأنها كانت تنتظر حتى تكمل رسالتها وتطمئن على سالم، وقد كان، و تم الزواج، وأيضًا قد أنهى سلاما إمتحانات البكالوريوس، ولم يتبق إلا شهرًا واحدًا فقط؛ وهو المخصص للانتهاء من مشروع التخرج.

****

"المشهد الثانى عشر"

بيت البلد ... غرفة سلاما

يستعد سلاما للسفر إلى القاهرة لينتهي من مناقشة مشروع التخرج، ويدخل عطية إلى الغرفة يساعد في تجهيز الحقيبة، ولكن سلاما من وقت رحيل أمه؛ لم يعد كسابق عهده، حتى إنه لم يبكي ولم تدمع عيناه ولا دمعة واحدة، وأصبح يتعامل وكأنه لا يشعر بما حوله، ويتعامل بدون أي مشاعر وأحاسيس، وهذا ما جعل سالم يزداد خوفًا عليه لأنه لم يصدر أي رد فعل كما هو متوقع، ولعلم سالم بمدى ارتباط سلاما بأمه؛ ولذلك فردة الفعل هذه لا تبشر بخير، وسيكون لها تبعات غير حميدة، ولكن في المقام الأول؛ يحاول سالم بكل وسيلة أن ينهي سلاما دراسته، ثم بعد ذلك يبدأ في التعامل مع هذا الأمر، يحاول عطية إخراج سلاما من حالته النفسية السيئة والتخفيف عليه بإلقاء بعض النكات أو التذكير بأيام الصومعة والاختراعات.

عطية : شهرًا واحدًا فقط وتصبح مهندس رسمي، ولكن لابد أن تعرف من هو السبب في الوصول لهذا اللقب، وتتذكر جيدًا كل ما فعلته معي في الصومعة؛ لأنه لولا التجارب التي كنت تجريها على العبد لله ما كنت وصلت إلى هذه الشهادة ابدأ.

جلس سلاما وهو ينظر أمامه في استغراق؛ وكأنه يحدث نفسه ولكن بصوت مرتفع.

سلاما : عندما كان الإنسان في بطن أمه جنينًا؛ كانت الرابطة بينه وبينها من خلال الحبل السري رابطة سرية، فهذا الجنين يعيش ويتفاعل مع العالم الخارجي من خلال أمه، ولكن بعد اكتمال الحواس وتمام النمو يأتي موعد الولادة، فأول ما يقوم به الطبيب هو قطع الحبل السري الذي يربطه بالأم، وفي هذه اللحظة... يبدأ الطفل أول اتصال مباشر له مع العالم الخارجي من دون الأم، ولذلك فأول ما يفعله الطفل في هذه اللحظة هو البكاء، وكأنه يعلم أنه سوف يبدأ مرحلة جديدة؛ ولكنها ستكون بدون هذا السياج وهذه الحماية التي تعود عليها وهو في بطن أمه، فهو لا يملك أبلغ ولا أصدق من البكاء للتعبير عن هذه المشاعر، ولكن الإنسان يتميز عن باقي الكائنات الأخرى التي تتشابه معه في عملية الولادة، فهو ليس جسمًا فقط بدن وروح، فإذا كان الجنين في الحيوانات يرتبط بالأم أيضًا بالحبل السري، فلا بد من وجود اختلاف بين الارتباط السري في الحيوان والإنسان، وكما أن الإنسان يتمايز عن الحيوان بوجود النفس، فلابد من وجود تمايز مماثل في الحبل السري أيضًا، وهنا يمكن لنا أن ندعي أنه إذا كان الحيوان يرتبط بأمه من خلال الحبل السري البدني فقط فإن الإنسان لابد وأنه يرتبط بحبل سري بدني ونفسي، وعند إكتمال النمو البدني للجنين؛ تحين ساعة الولادة، وأول ما يفعله الطبيب عند الولادة هو قطع الحبل السري البدني، ولكن الحبل السري النفسي لم يتم قطعه بعد، وسيتم قطعه في مرحلة أخرى من حياة الطفل، وهي عند اكتمال نمو الحواس النفسية لهذا الطفل، وهذا بالطبع يختلف من طفل إلى آخر ومن بيئة إلى أخرى،

وأيضًا من ثقافة إلى أخرى، وإذا ما تمت ولادة الطفل دون اكتمال الحواس البدنية وكانت ولادة مبكرة؛ فلابد من وضع الطفل في الحاضنة التي تشبه إلى حد كبير بطن الأم، حتى يتم نمو الحواس البدنية التي لم تكتمل في بطن الأم، وهذا أيضًا يحدث بالنسبة للحبل السري النفسي، فإذا تمت الولادة النفسية قبل اكتمال الحواس النفسية؛ فلا بد من وضع الطفل في الحاضنة النفسية حتى تكتمل حواسه النفسية، ويعتبر بكاء الطفل عند ولادته مؤشرًا صحيًا على الولادة البدنية، وكذلك ربما ينطبق الأمر على البكاء عند الولادة النفسية، ولذلك فمن الأسباب الرئيسية في الحالة المجتمعية التي وصلنا إليها هي عدم وجود حاضنات نفسية ليكتمل فيها بناء حواس الإنسان النفسية؛ كما أوجد المجتمع حاضنات بدنية للأطفال المبتسرين بدنيًا، فلابد من تضافر الجهود أيضًا لإيجاد حاضنات نفسية للأطفال المبتسرين نفسيًا، فإذا ولد الأطفال المبتسرين بدنيًا ولم يجدوا حاضنات بدنية لهم، عاشوا بقية حياتهم في معاناة شديدة نتيجةً لذلك، وهذا ما يحدث تمامًا في حالة إذا لم يجد الأطفال المبتسرين نفسيًا حاضنات نفسية لهم، سوف يعيشون في معاناة يمكن أن تكون أكبر بكثير من معاناة الأطفال المبتسرين بدنيًا، وفي أغلب الأحيان نجد أطفالًا قد ولدوا وعاشوا وماتوا وهم لا يدركون أن السبب الرئيسي في المعاناة التي كانوا فيها يتمثل في أنهم لم يدخلوا إلى الحاضنة النفسية حتى تكتمل حواسهم النفيسة، ويمكن أن تكون المدة الزمنية التي عاشها الصحابة في مكة قبل الهجرة بمثابة الحاضنة النفسية لهم، ولذلك نجد أن الرسول - ﷺ - عندما هاجر

إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، أي أن كل صحابي من المهاجرين أصبح أخًو صحابي من الأنصار، وما معنى ذلك معناه أن يمكث الأنصاري مع المهاجر أكبر وقت ممكن في اليوم والليلة، وهذا الوقت الذي يقضيه معه لكي ينقل إليه ما اكتسبه في الحاضنة النفسية في المرحلة المكية؛ لأن المكتسبات النفسية لا يمكن أن تنتقل بالمقال فقط، ولكن لابد من وجود الحال أيضًا، فلما أهتم المجتمع اهتمامًا بالغًا بتوثيق ونقل المقال، وهذا الأمر مطلوب وضروري، ولكنه في المقابل لم يهتم بنقل الحال بنفس القدر من الاهتمام، ونتيجة لذلك حدثت هذه الفجوة بين الدين والتدين، فالدين علم، والتدين سلوك.

عطية و كأنه لم يسمع شيئًا مطلقًا، وهو منهمك في تجهيز الحقيبة فقط.

عطية : أفهم من ذلك أنك تريد مني أن أقوم بتجهيز الحقيبة بمفردي، تمام يا هندسة، ولا أي مشكلة.

****

"المشهد الثالث عشر"

كلية الهندسة

بعد تعرض تليفون سلاما للكسر، لم يعد هناك أي اتصال بينه وبين إيمان، وقد مر وقت ليس بالقليل منذ آخر اتصال بينهما.

وصل سلاما إلى الكلية، وتقابل مع ميادة داخل مبنى الكلية.

ميادة : لقد علمت ماحدث، البقاء لله، ولا أدري ماذا أقول لك ؟ ولكن إذا احتجت لأي مساعدة فأنا موجودة.

يلتفت سلاما وينظر حوله، وأحست ميادة أنه يبحث عن إيمان.

ميادة : لقد حاولت إيمان الاتصال بك عدة مرات؛ ولكن لم تتمكن على الإطلاق، فقد أرادت أن تتصل بك قبل سفرها.

لم يصدق سلاما ما يسمع، كيف تسافر بهذه السرعة وحتى قبل مناقشة مشروع التخرج!

ميادة : لقد أصيب والدها بفيروس نادر، وكان لابد من السفر بصورة فورية؛ حتى يمكن السيطرة عليه ولا يتعرض إلى مضاعفات خطيرة، فلما علمت إيمان بذلك تقدمت بطلب إلى العميد وشرحت له الظروف، وافق على تقديم ميعاد المناقشة بالنسبة للمشروع الخاص بها، لأنها تقريبا قد انتهت منه.

بعدما سمع سلاما هذا الكلام تغير حاله، وكأنما انعزل عن الوسط المحيط به، ويبدو أن هذه الكلمات كانت بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير.

سلاما : لا أم ولا إيمان **!**

إستدار سلاما وغادر، وأخذت ميادة تكرر النداء عليه عدة مرات، ولكن دون جدوى؛ لأنها كانت تريد معرفة كيفية الإتصال به حتى تخبر إيمان؛ لأنها طلبت منها ذلك، ولكن لم تتمكن من معرفة ذلك، وغادر سلاما الكلية، ولم يقابل ميادة مرةً أخرى.

****

"المشهد الرابع عشر"

حي سيدنا الحسين بالقاهرة

عاد سلاما من البلد، وأقام في شقة والده التي كان يقيم فيها عندما يأتي لزيارة مقامات آل البيت وأولياء الله الصالحين وحضور الموالد الخاصة بهم، وبجوار هذه الشقة يوجد زاوية صغيرة كان يصلي فيها الحاج الطيب، وأيضًا يصلي فيها سلاما، ولمعرفة المصلين بأن سلاما هو ابن الحاج الطيب الذي كان يؤمهم عندما يكون موجودًا، قدموا سلاما إمامًا لهم لحفظه القرآن وإتقانه لأحكام التلاوة.

وفي أحد الأيام بعد صلاة الفجر حضر رجل كبير في السن إسمه أبو تيمور، و طلب من سلاما التحدث معه بعد ما عرف أنه ابن الحاج الطيب، وكان هذا الرجل صديقًا للحاج الطيب، طلب أبو تيمور من سلاما الخروج والتنزه حول المسجد بعض الوقت، وأراد أبو تيمور أن يحكي له ما حدث معه وهو مريض.

أبو تيمور : كنت مريضًا بسرطان الدم، وكانت حالتي متأخرة؛ فتم حجزي في المستشفى، جلست في المستشفى ما يقارب من عام كامل، وكما تعرف فإن تكلفة العلاج الكيماوي مرتفعة جدًا بالنسبة لموظف مثلي، وكان أمامي خيارين لا ثالث لهما، إما صرف الراتب على العلاج، أو صرفه على أولادي ودراستهم، ولم يكن لهم

مصدر آخر، ولم يكن أمامي إلا الاختيار الثاني لأن الأولاد تعتمد اعتماد كلي على هذا الراتب، وما زالوا في مراحل التعليم المختلفة، ولكن بين الحين والآخر كان يحضر بعض المعارف والزوار ويضعون بعض الأموال تحت الوسادة الخاصة بي، فإذا جاء الليل نظرت تحت الوسادة فإذا وجدت ما يكفي لشراء العلاج، أحضرت بعض العلاجات وتناولتها، وإذا لم أجد فلا أتلقى علاجًا؛ فأنا أعلم أن الحالة متأخرة وأنني في نهاية المشوار، وبعد تدهور حالتي الصحية أصبحت غير قادر على القيام للصلاة، فطلبت من إدارة المستشفى توجيه السرير إلى القبلة حتى أتمكن من الصلاة وأنا في مكاني، وأثناء ذلك خطرت لي فكرة، وهي طالما أني أجلس كل هذا الوقت ولا أفعل شيئًا؛ فلماذا لا أستغل هذا الوقت في شئ له قيمة ؟ ونظرًا لحالتي الصحية فلم أجد إلا الذكر الذي يمكن أن أنشغل به وأنا على هذا الحال، فقلت أبدأ في الذكر قبل أن يثقل لساني ولا أتمكن من الكلام، وارتاحت نفسي للصلاة على النبي - ﷺ -، ودخلت في تحدي مع نفسي، وهذا التحدى هو أني أتمكن من الوصول إلى مليون صلاة، وفعلًا بدأت التحدي لأصل إلى المليون صلاة على النبي - صل الله عليه واله وسلم- فوصلت إلى ما يقرب من سبعمائة ألف صلاة، وفي يوم من الأيام بعد صلاة الفجر وأنا جالس على سريري كالعادة والغرفة مظلمة تماما، فإذا بي أرى رجلًا يقف على حافة السرير، ولكنه رجل شفاف؛ أي أستطيع أن أرى من خلاله، نظر إلي هذا الرجل وقام بإمساك الأصبع الأكبر في قدمي اليمنى

من الظفر وجذبه إليه، فإذا به وكأنه يسحب شيئًا من جميع أجزاء جسمي ويخرجه من أصبع قدمي، ثم اختفى هذا الرجل بعد ذلك، وظننت أني أحلم أو أني أتوهم شيئا من شدة المرض، ولكن ما حدث في اليوم التالي هو الذي نبهني لهذا الأمر، عندما حضر الطبيب في اليوم التالي وبدأ في تصفح التقارير الخاصة بي كما هو معتاد، نظر الطبيب إلى الملف وإذا به ينظر إلي في دهشة، ويعاود التأكيد على رقم الملف واسم الحالة ورقم السرير، ويعاود النظر مرةً أخرى في القياسات خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية، طلب الطيب من المساعدين أن يقوموا بإجراء هذه التحاليل مرة أخرى وأن يتأكدوا من صحتها، وسيعود بعد ساعتين لمتابعة الحالة بنفسه، وبعد مرور ساعتين جاء الطبيب وهو متلهفًا معرفة نتيجة الاختبارات والتحاليل التي طلبها، وبعد أن نظر في التقرير مرة أخرى؛ تقدم وجلس بجانبي وسألني: ماذا حدث بالأمس ؟ ظننت أن الحالة قد ساءت وأنه سوف يخبرني بذلك، فقلت له لم يحدث شيئًا؛ لأني كنت أظن أن ما حدث معي خيال ليس إلا، فقال الطبيب: سبحان الله! لا يوجد شيء آخر يمكن قوله في هذه الحالة، هذه معجزة حقيقية! وأخبرني أني قد شفيت بصورة كاملة وكأن شيئًا لم يكن، ولما سمعت هذا الكلام تذكرت ما حدث معي بعد صلاة الفجر، ولم أخبر أحدًا بهذا الأمر، ولكن أردت أن أخبرك به لأن أباك كان صديقي، وكانت له أحوال كثيرة معي على نفس الشاكلة.

سلاما : أرى أنها رسالة شخصية لك أنت وعليك إكمال العدد المتبقي من المليون صلاة، وألا تتقاعس عن ذلك، ولا تهتم كثيرًا بمعرفة الناس لما حدث معك؛ فإنها رسالة لك أنت وليست للآخرين.

أبو تيمور : بإذن الله لن أترك السبحة من يدي ما دمت حيًا.

سلاما : أريد أن أسألك سؤالًا واحدًا، وأنت في هذه الحالة المرضية وتشعر أنك ربما تنتهي حياتك في أي لحظة، ما هو أكثر شيء كنت نادمًا عليه في حياتك ؟

صمت أبو تيمور قليلًا وأخذ يفكر بعمق...

أبو تيمور : أكثر ما ندمت عليه هو أني لم أعيش حياتي لنفسي وإنما عشتها للناس، فلم أعش حياتي كما أريد وإنما عشتها كما يريد الناس؛ إما خوفًا من كلام الناس أو خوفا على الصورة التي أحاول أن أظهر بها أمام الناس أو تجنبا للأزمات مع الناس، في جميع الأحوال كنت أعيش من أجل الناس وليس من أجلي، ولذلك عندما شعرت بدنو الأجل؛ كان أكثر شيء ندمت وتحسرت عليه هو هذا الإحساس بعدم الاستغلال الأمثل لفرصة الحياة في العيش كما أريد.

****

"المشهد الخامس عشر"

المسجد الذي يصلي فيه سلاما

يجلس أبو تيمور مع سلاما بعد الصلاة يحدثه في أمر ما

أبو تيمور : أريد أن أريك شيئًا أعتقد أنك لم تعلم به قبل ذلك، ولكن لا بد من الخروج للذهاب إلى مكان قريب من هنا.

سلاما : لا مانع، يبدو إن الأمر مهم.

أبو تيمور : طبعًا مهم! لأنه يتعلق بالحاج الطيب المصري رحمه الله.

يخرج سلاما مع أبو تيمور من المسجد ويسيران معًا في الطريق.

أبو تيمور : الحاج الطيب- رحمه الله- كان من عشاق آل البيت -رضي الله عنهم -، وكان حضوره غالبًا إلى مصر من أجل حضور الموالد الخاصة بهم؛ والتي كان يسجلها في مذكرة ويعلم مواعيدها بكل دقة، ويحاول الحضور في كل مولد ويقيم به حتى ينتهي، ويقوم بنصب خيمة للخدمة والطعام، ويظل إلى أن ينتهي المولد، وفي بعض الزيارات لأحد الأضرحة؛ لم يجد الحاج الطيب اسم صاحب الضريح مكتوبًا عليه، وكان ذلك بالنسبة له أمر غير طيب؛

لأنه يعتقد أن من حقهم علينا أن نعرف إسم صاحب الضريح، واجتهد كثيرًا لمعرفة هذه الأسماء الغير مدونة، ولكن لم يحالفه الحظ، وفي يوم من الأيام جلس في أحد هذه المقامات وأسند ظهره إلى الضريح، وأخذته سنة من النوم، فلما استيقظ وجد نفسه يمسك بالقلم ويكتب هذه الأبيات التي ستراها بعد قليل، وقام بتدوينها و طباعتها ووضعها عند هذا الضريح الذي كتبت عنده.

وصل أبو تيمور وسلاما إلى الضريح، وهو مقام لأحد من آل البيت - رضي الله عنهم -، فوجد القصيدة مكتوبة ومعلقة، ومكتوب تحتها الطيب المصري.

أبو تيمور: معظم من يقرأها يعتقد أن الطيب المصري صفة وليست اسمًا، ولكن من يعرف القصة ويعرف الطيب المصري يدرك حقيقة الأمر.

بدأ سلاما يقرأ أبيات القصيدة بهدوء وروية :

نحن من عرفوا

نحن الجياد الغر إذ وصفوا.....

نحن من بحرنا الدر يقتطف

نحن الكرام فلا تشأوا بناظرنا.....

نحن الفخار وعرهم جحف

نحن البيان فلا شعرا بنا هجنا.....

نحن القصائد والأبيات والنتف

فن الفصاحة شعب من مدينتنا.....

الناس من حولها و ببابنا صفوا

قد اصطفانا أذهب الرجس طهرنا.....

رب البرية أفدونا شرف

إن ضن جاحد مستيقن بها.....

شهدت لنا في صلبهم نطف

نحن من نحن .....

من بذكر الآل وحدهم عرفوا

الطيب المصري

فعلم سلاما أنه ربما قد ورث ملكة الشعر من أبيه - رحمه الله-.

شجرة الجميز

وعدنا مرةً أخرى بعدما تجولنا في شريط الذكريات الخاصة بسلاما، ومازال سلاما يجلس تحت شجرة الجميز، ومازال يمسك ببطاقة الرقم القومي، وبدأ يسمع من بعيد صوت كوكب الشرق وهي تشدو برائعة حكم علينا الهوى فإنتبه، فإذا هي مركب تسير في النيل من أمامه.

اليوم السادس

يتجول سلاما ومعه شاكو، وقد وصل بهم الترحال إلى مكان بعيد نوعا ما عن العمران.

ولكن لا بأس من الاستمرار طالما ما زال هناك قدرة على المضي قدمًا، ولم يحن بعد وقت الطعام لشاكو؛ فسلاما يعرف أن شاكو قد بدأ يشعر بالجوع عندما يجلس أمامه وهو يمشي يحثه على الوقوف والذهاب لاصطياد الأسماك من النيل حتى يأكل.

ولكن شاكو ما زال بحالة جيدة وما زال نشطا، ولا يفكر في الطعام حتى الآن.

وإستمر الحال بهم على هذا المنوال إلى أن سمعا صوتا، وكأنه صوت صراخ أو توسل أو ما شابه ذلك.

فتوجه سلاما وتحرك نحو الصوت ربما يكون هناك من يحتاج إلى المساعدة، وبعدما وصل قريبًا من الصوت، وجد سلاما أن مصدر الصوت سيارة مغلقة.

فتوجه نحوها وقام بالدوران حولها ليرى ما بداخلها، ولكنه لا يستطيع الرؤية؛ لأن الزجاج لا يمكن الرؤية من خلاله لأنه مغطى بمادة تمنع الرؤية.

ولكن الصراخ مازال مستمرًا، فطرق سلاما على السيارة من الخارج ليعرف ماذا يحدث داخلها، فإذا بصوت فتاة تتوسل المساعدة والإنقاذ بمن في الخارج.

طرق سلاما على السيارة بقوة، ثم أخذ حجرًا من الأرض وقام بكسر زجاج السيارة؛ حتى يتمكن من فتح باب السيارة.

وفتح الباب، فإذا بشاب وفتاة وهذا الشاب يحاول أن يعتدي على الفتاة، وهي تصده و تستغيث به أن يتركها.

ولما سمع الشاب صوت كسر زجاج السيارة، التفت إلى سلاما وأخذ يشتمه ويسبه؛ لأنه كسر زجاج سيارته التي تبلغ من السعر مالا يمكن لمثله أن يتصوره.

وترك الشاب الفتاة، وبدأ يتقدم نحو سلاما وهو شديد الغضب؛ لأنه يرى أن سلاما قام بالتعدي على أملاكه الخاصة من غير وجه حق، وأنه حر يفعل داخل سيارته ما يريد، ولا يجوز لأحد مهما كان أن يعتدي عليه وعلى ملكيته الخاصة.

الشاب : ماذا فعلت يا حيوان؟

وقف الشاب وإرتدى ملابسه بسرعة، وخرج ليلقن هذا المتطفل درسًا لن ينساه، فكيف له أن يتجرأ ويكسر زجاج سيارته.

الشاب : أتعرف كم ثمن هذا الزجاج الذي كسر! لا أنت ولا أحد من أهلك يستطيع أن يشتريه يا متخلف ؟

سلاما : كأنه لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم وكل ما كان يهمه هو أن يطمئن على الفتاة ولا يتركها.

أخرج الشاب سلاحًا ناريًا من السيارة وأشاره في وجه سلاما، ويبدو أنه لم ينتبه لوجود شاكو من شدة غضبه.

ولكن بمجرد أن رأى شاكو السلاح، وكأنه تحول إلى وحش وبدأ بالتعامل بإحترافية كاملة مع الشاب ومع السلاح الذي في يده، وتبين بعد ذلك أن شاكو مُدرَب بإحترافية للتعامل مع السلاح ومع من يحمله.

ألقى شاكو الشاب على الأرض، ووقف عند رأسه ينتظر الأمر من سلاما؛ لكن الشاب ولسوء حظه وربما لحسن حظه؛ فإنه يخاف بصورة مرضية من الكلاب لأنه قد تعرض وهو صغير لهجوم من عدة كلاب، وما زالت هذه الحادثة تؤثر على علاقته بالكلاب عموما، فدخل الشاب في حال نفسية سيئة وبدأ التصرف بحالة غير منضبطة، فلاحظ سلاما ذلك وتوجه إليه مباشرة، وأبعد شاكو عنه، وأخذ يهدأ من روعه.

ولما رأت الفتاة ذلك بعد ما نزلت من السيارة، تعجبت من حالة الخوف والضعف التي تتملك الشاب الآن، مع أنه قبل دقائق قليلة كان الأمر مختلفًا كليًا وكانت تبدو عليه علامات القوة والفتوة وعدم الرحمة، ولكن أنقلب الحال في ثواني معدودة رأسًا على عقب.

حاول سلاما أن يجلس الشاب في السيارة وطلب من الفتاة أن تدخل إلى السيارة ليقوم بتوصيلها إلى بيتها، وجلست الفتاة في المقعد الخلفي ومعها شاكو، وجلس الشاب بجوار سلاما، وقاد سلاما السيارة حتى يوصل الفتاة أولًا ثم بعد ذلك يوصل الشاب إلى بيته، وفي أثناء الطريق بدء سلاما بالحديث وكأنه يحدث نفسه ولكن بصوت مرتفع.

سلاما : يا ترى من هو الجاني ومن هو الضحية في هذه المعركة؟ معركة بين الطعام والجوعان، معركة مليئة بكل فنون القتال المختلفة، معركة محتدمة بين الطعام والجوعان، فعندنا سفرة مليئة بكل أصناف الطعام وما لذ وطاب من أطيب الأصناف، ولها رائحة نفاذة، وأشكال وأصناف يسيل لها اللعاب ولا يستطيع أحد حتى ولو كان شبعانًا أن يقاوم هذا الطعام ولا هذه السفرة الممتدة من الأصناف المتنوعة والمبهرة، فما بالنا لو كان هذا الشخص وصل لدرجة عدم القدرة على السيطرة على تصرفاته من شدة الجوع، فهناك إنسان يهزي من الجوع ويرى هذه السفرة أمامه في كل لحظة، وأيضًا يتفنن المجتمع في كيفية عرض الطعام والدعاية له، وأيضًا التركيز على الأجزاء المثيرة فيه والتي لا يمكن أن يقاوم تأثيرها الشبعان المتخم بالطعام، فما بالنا بمن يأكل الثرى من العطش، والمفارقة العجيبة أن المجتمع يبيح ويشجع علي عرض الطعام بكل الصور الممكنة، بل ويجعل ذلك أيضًا من علامات الحضارة ومن الحريات الشخصية التي لا يمكن أن تمس ولا يفكر أحد ولو في خياله أن يتفوه بأي كلمة تدل على أنه لا يتقبل طريقة عرض السفرة أو الطعام؛ لأنه بذلك قد فتح على نفسه باب من أبواب جهنم، ولن يهنأ بعدها أبدًا، فالتهمة حاضرة والأوصاف متوفرة ومجربة في مدى فاعليتها ونجاحها، فإن المجتمع يرى أن من أهم مظاهر الحضارة والحرية الشخصية أن يعرض الشخص كل ما يمتلك من أطعمة، وأيضًا يعطيك المجتمع الحق والحرية في النظر والشم وربما اللمس للطعام، وعند هذا الحد تكون قد اكتملت الحقوق الخاصة الممنوحة لك، ولا يحق أبدًا طلب الزيادة ولا أن تمد يدك لتأكل من الطعام، فجريمة مد اليد للأكل لا تغتفر ولا يوجد أي مبرر لها على الإطلاق، ولن يسمح لك أحد حتى مجرد التفكير في ذلك، والطريف في الموضوع أن الطعام أيضًا يريد أن يأكله الجائع، فعندنا جائع يريد الطعام، وطعام يريد الجائع، فأين الجاني ؟ وأين الضحية ؟

وكأن سلاما قد وضع يده على الجرح، فحرك الشاب رأسه بشدة مؤكدًا على كلام سلاما، ولكن الفتاة لم تنتبه بعد لمعنى الرمز المقصود بالطعام الجوعان.

سلاما : كلكم طعام وكلكم جوعان.

الشاب : إذًا أين المشكلة وأين الخلل ؟ إذا كان الأمر هكذا، الجوعان يريد الطعام والطعام يريد الجوعان.

سلاما : اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأحوال.

الشاب : لا أفهم شيئًا !

سلاما : في كثير من الأحيان يمكن أن يحدث تغييرات غير متكافئة في هذه الأربع: الزمان المكان والأشخاص والأحوال، فربما كان تغير الزمان أسرع بكثير من تغير الأشخاص وثقافتهم، ولذلك تجد أن الثقافات والعادات غير متوائمة مع تغير الزمان والمكان، فنجد أن هناك عدم تناسب في التغيير الحادث في كل عنصر من العناصر الأربعة، ويؤدي ذلك بالضرورة إلى عدم التوازن في المجتمع، أما إذا كانت التغيرات متزامنة فلن تجد هناك خللًا، ولن تكون هناك تعقيدات مترتبة على هذا الخلل تؤدي إلى هذه الفوضى وعدم التوازن والتناسق في التغيير بين هذه الأربع وارد جدًا ومقبول أيضًا، ولكن المعضلة في عدم إدراك المجتمع لهذه العوامل في التعامل مع المشكلات التي تواجهه، فنحن في هذه الحالة نرى شابًا وفتاة في وضع غير مقبول لا دينيًا ولا أخلاقيًا ولا مجتمعيًا، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل تمثل هذه الحالة التي نحن بصددها المرض الحقيقي؟ أو أنها مجرد عرض لمرض؟ أو يمكن أيضًا أن تكون حالة مشتركة من المرض والعرض معًا ؟ ومعرفة الإجابة على هذا السؤال مهمة جدًا في تحديد طريقة العلاج والتعامل مع هذه الظاهرة، اذاً هل نحن بصدد التعامل مع مرض أو مع عرض ؟ ومن خلال الإجابة على هذا السؤال نستطيع أن نبدأ في التعامل مع الظاهرة بشكل صحيح.

الفتاة بدأت تستوعب الأمر، والرمز الذي يربط بين الطعام والجوعان والسفرة.

الفتاة : هذا السلوك بالتأكيد ينم عن مرض وعرض معًا، ولا يمكن الفصل بينهما؛ فهذا الفعل ينطوي على حالة مرضية، وحالة أيضًا عرضية، فمن يقدم على هذا الفعل لا بد أن يكون مريضًا نفسيًا وغير سوي، وأيضًا هناك عرض جانبي أكيد ناتج من المجتمع، فأمراض المجتمع تؤثر على الأفراد، وبالتالي تظهر أعراض هذه الأمراض على الأفراد ولكن بنسب مختلفة؛ تبعًا لاختلاف المناعة الذاتية لهؤلاء الأفراد، ولكن الشخص الذي يتأثر بهذه الأمراض لم يحصن نفسه بالقدر الكافي ضد هذه الأمراض، أو أن عنده استعداد للمرض، أو أن مناعته قليلة ! وإلا لماذا لم يقدم جميع أفراد المجتمع على فعل ذلك الأمر ؟ فلابد إذًا من وجود خلل ما في شخصية ذلك المريض جعلته غير قادر على مقاومة هذه الأمراض المجتمعية.

سلاما : ولكن هناك سؤال يطرح نفسه، هل مناعة الفرد الذاتية هو المسؤول الوحيد عنها ؟ أم لابد من وجود مناعة مجتمعية تعمل على مساعدة الأفراد في تقوية مناعتهم؟ أي هل هي مسؤولية مشتركة بين جميع أفراد المجتمع أم مسؤولية فردية ؟ بمعنى آخر إذا افترضنا أن هناك فايروس ما بدأ ينتشر في المجتمع، فهل يمكن بأي حال تحميل المريض صاحب المناعة الضعيفة بمفرده مسؤولية انتقال الفيروس إليه؟ أم أنه لابد من مساندة المجتمع في العلاج والوقاية من انتشار هذا المرض؟

الفتاة : معنى ذلك إننا نطالب المجتمع بالسكوت عن هذه الظاهرة حتى يتم تهيئة البيئة الصحية التي ينشأ فيها الشباب، أو على أقل تقدير معالجة أعراض المرض وتأثيرها عليهم، وهذا أمر لا يمكن القبول به ولا حتى تصوره!

سلاما : ليس المراد أن تتوقف القوانين ولا مؤسسات الدولة عن أداء دورها، ولكن المقصود هو النظر بقدر أكبر من الشمولية، والبحث عن الأسباب الحقيقية للظاهرة وليس فقط التعامل معها من منظور عقابي دون مراعاة العوامل الأخرى التي تؤثر في ظهور المرض، أما إذا كان المقصود الردع والعقاب فقط، فهذا يبني مجتمع غير متوازن، أي أن هذا المجتمع يكون له أخلاقيات ظاهرة وأخرى باطنة، وهذا لا يؤدي إلى انسجام المجتمع وتمكنه من الحياة بصورة متزنة، فإذا نظرنا إلى الأمراض البدنية المعدية؛ فسنجد أننا نتعامل مع الأمراض البدنية التي يتعرض لها الإنسان بطريقة مختلفةً، فلا نحمل المريض مسؤولية مرضه، أو مسؤولية علاج نفسه، ولكن تتضافر جهود المجتمع بأكمله للتغلب على هذه الأمراض قبل أن تتفشى وتصبح حالة وبائية، فالمراد اذاً هو التعامل مع المرض أو العرض النفسي تمامًا كما نتعامل مع المرض الفيروسي أو البدني، فإذا قمنا بتحميل المريض الأخلاقي المسؤولية الكاملة عن علاج نفسه والقيام أيضًا بالإجراءات الوقائية والاحترازات اللازمة؛ فإننا بذلك نكون قد حكمنا عليه بالعزلة، أو حتى على أقل تقدير تفاقم الحالة المرضية له، لأنه يصعب عليه بمفرده مهما بلغت قوته وجاهزيته أن يقوم بمثل هذه الإجراءات والاحترازات المطلوبة بمفرده وبدون مساعدة من المجتمع، فلابد من وجود مؤسسات تابعة للمجتمع تكون مهمتها العمل على الوقاية والعلاج من الأمراض الأخلاقية، وأيضًا عدم تفشيها .

شعر الشاب أنه ربما يكون هو المقصود من كلام الفتاة عن المريض والمناعة، وأنها إنما تكيل له الإتهامات ليس إلا.

الشاب : لم نتطرق إلى الحل لا من قريب أو بعيد، مجرد تشخيص للمشكلة فقط.

سلاما : هل قرأتم رواية إحسان عبدالقدوس " *يا عزيزى كلنا لصوص*"، فيمكن أن نقتبس العنوان ونقول يا عزيزي كلنا مرضى، فكلنا له حظ من المرض وحظ من التسبب في المرض، وهناك حديث نبوي يمكن أن يساعد في فهم الظاهرة، عندما نطالع الحديث النبوي الذي ذكر الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا ثم ذهب إلى عابد، فسأله هل له من توبة ؟

فأخبره بأنه ليس له توبة لأنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فقتله الرجل فأتم به المائة ثم ذهب الرجل إلى عالم فسأله هل له من توبة؟

فقال له العالم ما الذي يمنعك من التوبة فتاب الرجل ولكن العالم استدرك فقال له : ولكني أراك بأرض سوء فاذهب إلى أرض كذا، فإن فيها أناس يعبدون الله، فاعبد الله معهم.

وهذا هو الشاهد المقصود في الحالة التي نحن بصددها، وهي أن العالم لم يحمل القاتل المسؤولية الكاملة عما آل إليه حاله، ولكنه قد وضع جزء من هذه المسؤولية على المجتمع الذي يعيش فيه هذا القاتل، فقال له ولكني أراك بأرض سوء، أي كيف يمكن لمجتمع سوي متزن أن يترك هذا الرجل يقتل مائة نفس دون الأخذ على يده ومعاقبته من أول مرة قتل فيها؟ ولذلك فقد وصفهم بالسوء، ويدل على ذلك أنه لما طلب منه الذهاب إلى أرض أخرى كان المبرر لهذا الطلب هو قوله إن فيها قومًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، أي أمره بالذهاب إلى مجتمع صالح، ومن هنا نجد أن العالم قد حمل المجتمع قدرًا كبيرًا من المسؤولية فيما وصل إليه ذلك الرجل، ولذلك فعندما أراد أن يساعد هذا المريض في التعافي أرشده إلى بيئة صحية غير مريضة؛ ليتمكن من مقاومة هذا المرض والتعافي منه فلابد، اذاً من الحاضنة النفسية المجتمعية للتمكن من الشفاء من الأمراض الأخلاقية كما يوجد هيئات مهمتها رصد ومتابعة تفشي الأمراض الوبائية والعمل على مقاومتها والعلاج منها، وعدم انتشارها في المجتمع.

الشاب : المجتمع مسؤول، والشباب مسؤول، أين الحل؟

سلاما : الحل بسيط جدًا.

الشاب والفتاة في نفس الوقت : بسيط جدًا **!**

سلاما : الحل في جملة واحدة فقط، حلال بوي فريند وحلال جيرل فريند.

الفتاة : بهذه السهولة، لا طبعًا **!** الأمر ليس بهذه البساطة.

سلاما : بالإضافة إلى المعاناة التي يعيشها الشباب، والأمراض النفسية والبدنية التي يتعرضون لها نتيجة هذا الكبت، وتأثيرها السلبي على الأسرة والمجتمع، فهناك بعد آخر، وهو أن الشباب في هذه الفترة التي تكون فيها الظاهرة في عنفوانها هي بذاتها نفس الفترة التي يبدأ فيها الشباب بالتفكير بصورة إبداعية خلاقة، وإذا نشأ كل منهما في هذه المرحلة العمرية بصورة صحية؛ سيكون له تأثيرات إيجابية كبيرة على كل نواحي المجتمع من الإبداع، والابتكار، والفن، والإنتاج، وغيرها، وسينعكس ذلك أيضًا في التعامل بين أفراد المجتمع بصورة متزنة وسوية، وسوف يتمتع كل منهم بهوية متزنة، والهوية معناها هو هو، أي هو في الداخل وهو في الخارج، والهوية المتزنة تكون سببًا مباشرًا في استمتاع الفرد بذاته، وهذا الاتزان يسهم بشكل مباشر في تقدم ورفاهية المجتمع، فإذا كنا نهدر هذه الفترة الخلاقة من عمر الشباب بإدخالهم في دائرة مفرغة من الصراعات إما بإظهار عدم الاهتمام بهذه الرغبة، أو بمحاولة الوصول إلي هذا الأمر، أو محاولة كبت هذه الرغبة، لأنه يرى أنه لا يستطيع أن يتعامل معها بصورة يقبلها المجتمع، وفي جميع الأحوال، يكون الخاسر الأول هو المجتمع، فقوة المجتمعات تقاس بقوة الشباب الموجود فيها، ونحن نهدر هذه المرحلة الخلاقة من عمر الشباب فيما لا ضائل منه، وليس ذلك وحسب بل على العكس، فنحن نوجد أجيال من الشباب تشعر بالغربة والانعزال، ويتولد بداخلها مشاعر متناقضة من الكبت والضيق والتوتر والغضب وعدم الانتماء وغيرها من المشاعر السلبية التي ربما لا يعرف الشاب نفسه أسبابها، مع أن الشاب لم يوجد هذه الرغبة التي بداخله، ولم يكن له دور في طريقة تعامل المجتمع مع هذه الظاهرة.

تحفز الشاب لسماع الشرح المفصل لهذا الحل الغير تقليدي .

الشاب : نريد أن نفهم كيف يتم تطبيق ال جيرل فريند ؟

ابتسم سلاما، لأن الشاب سأل عن الجيرل فريند، ولم يسأل عن البوي فريند.

سلاما : بكل بساطة نحن كمجتمعات شرقية نتأثر تأثيرًا مباشرًا بالثقافة الغربية السائدة في عالم اليوم، وهذه الثقافة لها اليد العليا في التأثير على الثقافات الأخرى، ولذلك فهذه المجتمعات التابعة تسير على نفس الخطى التي قطعتها الثقافة الغربية في كل مناحي الحياة، وقد تغلب الغرب على هذه المعضلة بالتخلي عن تأثير الدين في سلوكياته اليومية، وهذا بالنسبة لهم أصبح مقبولًا قانونًا وعرفًا؛ لأنهم ببساطة شديدة تخلوا عن الدين وتبعاته من الحلال والحرام، فأصبح الحل بالنسبة لهم مقبولا، وفي نفس السياق الذي بنيت عليه هذه الحضارة العلمانية المادية، ولكن بالنسبة للمجتمع الشرقي فإن الأمر مختلف تماما، فعلى الرغم من أننا تأثرنا بهم في ظهور المرض؛ لا نستطيع أن نتأثر بهم في معالجة المرض، فقد انتقلت العدوى من الغرب لنا نتيجةً لعوامل عديدة، ولكن لا يمكن استعمال نفس العلاجات التي تم استخدامها في الغرب لعلاج المرض الذي وصل إلينا عن طريقهم، وهذا التناقض فرض علينا هذه الحالة التي نحن بصددها الآن، فنحن مشتركين في المرض والعرَض، ولكن لا يمكن أن نشترك في طريقة العلاج، وهذا أمر جيد ومطلوب وليس العكس؛ لأننا مازلنا لا نريد أن نخرج عن عباءة الدين وتأثيراتها على الحياة الاجتماعية، وقد حدث مثل ذلك أيضًا في الحياة السياسية، فعندما تم التعامل بالنظام البرلماني الديموقراطي المأخوذ

من الغرب؛ لم نتنصل من أحكام الدين كما فعلوا في النموذج البرلماني الخاص بهم، ففي النموذج الغربي لا يوجد سقف للبرلمان يمكن أن يقيد القوانين التي تصدر عنه، فالمصلحة وحدها هي الباعث والمحرك للمشرع لإصدار القانون، ولكن عندما أردنا نقل هذا النموذج البرلماني في مجتمعنا، قمنا بابتكار حلًا عبقريًا ليتوائم هذا النموذج الغربي المبني على الثقافة الغربية مع ثقافتنا الدينية، فماذا فعلت العبقرية المصرية؟ قامت بالتغلب على المعضلة الرئيسية في النموذج البرلماني الغربي، وهى عدم وجود سقف للمشرع يمنعه من إصدار أي قانون يرى فيه المصلحة، فقام المشرع المصري باستحداث مادة جديدة في الدستور، وهي المادة الثانية في الدستور، والتي تنص على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع، وبهذه المادة العبقرية أصبح البرلمان لا يملك الحق المطلق في إصدار القوانين، ولكن لابد من الالتزام بالسقف الذي وضعه الدستور في المادة الثانية، ولذلك وجب عليه أن تكون كل القوانين الصادرة منه غير مخالفة لمبادئ الشريعة الإسلامية، فنحن اذاً قد كانت لنا تجارب مماثلة في التعاطي مع النموذج الغربي، لكن مع الوضع بعين الاعتبار الاختلافات الجوهرية بين الثقافات، وهذا ما سنفعله تمامًا في الحل المقترح، فنحن عندما نطرح فكرة حلال بوي فريند وحلال جيرل فريند نستخدم نفس العلاج الذي تم استخدامه في الغرب للتغلب على نفس المشكلة، ولكننا سوف نقوم بنزع المعوقات التي تمنع من استخدامه في مجتمعنا الذي يحرص على التمسك بأحكام الشريعة في علاقاته المجتمعية.

الشاب : وكيف سيتم تطبيق ذلك على أرض الواقع ؟

سلاما : مثال شاب وفتاة يريد كل منهما الآخر، وهناك حالة عاطفية بينهما، فبدلًا من الدخول في هذه الدوامة من التناقضات الغير محمودة العواقب، يتيح المجتمع لهما إمكانية إتمام عقد الزواج، ويكون محققًا لجميع الشروط الدينية وليس الشروط الاجتماعية، وهذا أمر مهم جدا، وهو أن يكون عقد الزواج محققًا الشروط الدينية فقط، ولا يعتد في هذا الأمر بالعرف ولا بالعادات ولا التقاليد، إنما نلتزم فقط بالشروط الدينية التي وضعها الشرع، وبعد ذلك يستمر كل منهما في بيته وفي حياته كما كان، ولكن لابد من وضع بعض الشروط الإجرائية، وذلك للمساعدة في نجاح التجربة، وهذا بالطبع يختلف من شخص إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى، ومن بيئة إلى أخرى، من وسط اجتماعي إلى آخر، فيكون مثلًا من ضمن الشروط إمكانية تطليق الزوجة لنفسها وغير ذلك، من الشروط التي تحفظ الحقوق والواجبات لكل طرف وتمنع وقوع الضرر، ولا نترك الأمر للعرف ولا العادات والتقاليد، فلابد من كتابة كل ما تم الاتفاق عليه بين الطرفين، وهذه بكل بساطة فكرة الحل المقترح حلال بوي فريند وحلال جيرل فريند.

الفتاة : إذا سلمنا بذلك جدلًا، فإن المتضرر الوحيد في هذه الحالة هي البنت وليس الولد؛ لأن نظرة المجتمع لها تختلف، لأنها لم تعد بنتا كما كانت وستكون فرصتها في الزواج بعد ذلك أقل، وذلك لأنها سبق لها الزواج، ويمكن أن يكون هذا الزواج أكثر من مرة، فالأمر ليس بهذه السهولة ولن يوافق عليه المجتمع، ولن يتقبله أحد ولا حتى البنت نفسها.

الشاب : ولماذا لا تقبل؟ الآن أصبحت البنت تهتم بنظرة المجتمع وكلام الناس**!** مع أنها في الوقت الحالي تفعل أشياء كثيرة مخالفة للتقاليد والعادات ولا تهتم برأي الناس ونظرة المجتمع، وإذا أخبرها أحد أن هذا مخالف للعرف والتقاليد أوحتى للدين؛ على الفور تجد الردود حاضرة، وتقول أنها تثق في نفسها، وأن أهلها يثقون بها، وأنها لا تهتم أبدأ بنظرة المجتمع وكلام الناس، مع أنه يمكن أن تكون المخالفة ليست للعادات الاجتماعية فقط ولكن أيضًا مخالفة للدين، ولكنها لا تهتم مطلقًا بذلك، فمثلًا في مسألة الحجاب من المعلوم بصورة مؤكدة أن الحجاب واجب بالنسبة للبنت، ولكنها تبرر عدم ارتداء الحجاب بمبررات غير عقلانية ولا منطقية، وتزعم أنها لابد أن يكون ذلك عن قناعة، أي قناعة تتحدث عنها **!** وهو أمر ديني لا جدال فيه، ولكن مع ذلك تبرر لنفسها المخالفة بدعوى الاقتناع، حتى تتهرب من المسؤولية ومن اللوم المجتمعي، ولكن المجتمع قد تجاوز ظاهرة خلع الحجاب وتعامل معها بصورة طيبة، حيث لم تعد مسألة الحجاب هي العامل الرئيسي في تقييم الفتاة أو الحكم على سلوكها من خلاله، مع أن المخالفة هنا مخالفة دينية وليست مخالفة مجتمعية كما هو الحال في حالتنا هذه، ولذلك فمن المتوقع أن يتجاوب المجتمع مع هذا الحل بصورة أفضل ويتأقلم معه في وقت أسرع، خصوصًا لأنه لا يخالف الدين، ولكنه فقط مخالفًا العادات والتقاليد، وفي مسألة الزواج خاصةً نجد أن العادات قد قيدت الدين وليس العكس، فالدين أوسع رحابة من المجتمع في شأن الزواج.

ولكن الفتاة خائفة من النظرة المجتمعية لهذا المقترح، وبدأ الشاب والفتاة يتناقشون بحدة مع بعضهم البعض من رفض وقبول، وهذا أمر جيد وظاهرة صحية وليست مرفوضة أبدًا، لأن هذا الحل عندما يعرض على المجتمع ستكون هناك ردود فعل مختلفة؛ نتيجةً لاختلاف التقاليد والعرف والمستوى الثقافي والمادي.

سلاما : ولكن الأمر يستحق التفكير، فهي فكرة في أساسها غير مخالفة للدين، ولكن مخالفة للعادات المجتمعية فقط، وهذه العادات قد تبناها المجتمع في زمان و مكان مختلفين تمامًا عن زماننا ومكاننا الآن، وأيضًا لأشخاص وأحوال تختلف بشكل كبير عن واقعنا الحالي، فلا يوجد ما يمنع من التفكير مرةً أخرى في هذه القواعد المجتمعية وإعادة صياغتها طالما أن ذلك لا يتعدى الخطوط الحمراء للمجتمع، وهو الحلال والحرام، وما يجعل الفكرة تستحق المناقشة أو التجربة هو المردود الإيجابي لهذه الفكرة، سواءً على الفرد والمجتمع .

الفتاة : لو سلمنا بهذا وافترضنا قبول الفكرة، ما هو الاختلاف بين هذا الطرح وفكرة البوي فريند في الغرب ؟ فهي مجرد احتيال وتلاعب بالألفاظ بوضع كلمة حلال قبل البوي فريند حتى يكون مقبولًا في المجتمع، ولكن في واقع الأمر البوي فريند هي نفسها حلال بوي فريند من حيث الأثر السلبي لهذه العلاقات على المجتمع.

سلاما : هناك اختلاف جوهري يتمثل في كلمة حلال، لأننا بهذه الكلمة قد أدخلنا هذه العلاقة في سياج من الحماية المتكاملة من خلال الالتزام بالشروط التي فرضها الشرع نتيجةً لعقد الزواج، والتي يجب الالتزام بها والتصرف من خلالها، فعلى سبيل المثال :

أولًا... لا يحل لأي طرف أن يمارس هذا الفعل مع شخص آخر خارج الإطار الشرعي.

ثانيًا... إذا تم الانفصال لابد من الالتزام بشروط العدة.

ثالثًا... لا يجوز أن يتزوج أي منهما بأب أو أم الآخر.

وهكذا سنجد أن بإضافة كلمة حلال فقط؛ أصبحنا داخل منظومة متكاملة من التشريعات التي تنظم هذه العلاقة، ومن المحتمل بصورة كبيرة أن تحدث بعض الإشكاليات عند التنفيذ على أرض الواقع، ولكن هذا الأمر يعتبر طبيعيًا ومعتادًا أيضًا، ولا يتعلق بهذه الفكرة فقط، ولكنه يتعلق بكل ما هو جديد ومختلف عما اعتاد عليه المجتمع، وعلينا حينئذ التعامل مع هذه الظواهر بمجرد الظهور والتصدي لها بوضع الحلول المناسبة.

وهنا وصلت السيارة إلى بيت الفتاة، وغادرت الفتاة السيارة، وودعت سلاما وشاكو بإشارة تدل على الامتنان والشكر لما فعلاه من أجلها.

واستمر سلاما في القيادة حتى يقوم بإيصال الشاب إلى بيته أيضًا، ولكن الشاب طلب من سلاما أن يوصل سلاما في البداية إلى حيث يريد، ثم بعد ذلك يذهب هو إلى بيته بمفرده.

وبعدما وصل سلاما إلى شجرة الجميز، اعتذر له الشاب عن كل ما بدر منه، وشكره أيضًا على تصرفه معه، وعندها أراد سلاما لفت انتباه الشباب إلى أمر مهم.

سلاما : هذه الفتاة تتعرض لنفس الضغوط التي تعرضت لها، وعندها نفس المشاعر لك، ومع ذلك تمكنت من السيطرة والتحكم في تصرفاتها، وهذا إنما يدل على شخصية فريدة ولا ينبغي التفريط فيها.

وبذلك نكون قد انهينا اليوم السادس من أيام سلاما تحت شجرة الجميز.

****

اليوم السابع

شجرة الجميز

يجلس سلاما وشاكو تحت شجرة الجميز، ينظران معًا إلى النيل، وما أدراك ما النيل و سحره وجماله، خصوصًا عندما يكون الجلوس في هدوء الليل وسكونه، وفي أثناء ذلك حضر طبيب العظام.

طبيب العظام : السلام عليكم.

سلاما : وعليكم السلام .

الطبيب : مررت بجوار الشجرة فأردت أن ألقي التحية وأطمئن على شاكو.

سلاما : تأتي بنفسك للإطمئنان على شاكو.

الطبيب : يستحق ذلك، لم أكن أعرف قدره من قبل، فهو قيمة كبيرة، والحقيقة أن كل شيء له قيمة؛ ولكن الإنسان عدو ما يجهل.

سلاما : نعم، فكل ما في الكون يسبح، ولذلك نجد أن المعجزة الحقيقية عند سماع تسبيح الحصى في يد المصطفى- صلى الله عليه وآله وسلم- لم تكن مجرد تسبيح الحصى؛ لأن الحصى دائم التسبيح، وإنما المعجزة هي سماع الصحابة لهذا التسبيح، فالمعجزة هي السماع وليس التسبيح في حد ذاته.

الطبيب : العلاقة الزوجية علاقة غاية في التعقيد والغموض.

يبدو أن الطبيب في مشكلة من المشاكل الزوجية التي لا تنتهي.

ولكن سلاما لا يريد معرفة تفاصيل المشكلة الزوجية التي يعاني منها الطبيب، ويريد فقط طرح رؤيته الخاصة لأسباب هذه المشاكل دون الخوض في التفاصيل الخاصة بكل مشكلة على حدة .

سلاما : العلاقة الزوجية علاقة خاصةً جدًا، تتوافر فيها ميزات فريدة لا تتوافر في أي علاقة أخرى، ولذلك فهى بالغة التعقيد والفائدة في آنٍ واحد؛ لأنها علاقة بالنفس والبدن معًا، فهي في المقام الأول علاقة نفسية، والتي تكون فيها العلاقة الجسدية عامل مكمل ومحفز وباعث على تسهيل إكتمال هذه العلاقة النفسية، فيفترض في العلاقة الزوجية أن تكون الرابطة النفسية هي الأصل والأساس الذي تبنى عليه العلاقة، فإذا انعكست الأمور وأصبحت العلاقة الجسدية هي الأصل في العلاقة ظهرت كل هذه المشكلات التي لا تنتهي.

الطبيب : من على البر عوام! ولكن عند نزول البحر يظهر على الحقيقة من يجيد السباحة ومن لا يحسن العوم.

ابتسم سلاما عندما سمع كلام الطبيب؛ لأن هذا إنما يدل على مدى الغضب والمعاناة الذي يشعر بها جراء هذه المشكلة التي يعانيها.

سلاما : مفتاح النجاح في العلاقة الزوجية هو معرفة سبب الغضب الذي يشعر به أي طرف، لماذا أنا غاضب لهذا الحد ؟ وهل إذا حدثت هذه المشكلة مع شخص آخر سيكون الغضب الذي يشعر به بنفس الدرجة ؟ نعطي مثالًا إذا جاء بواب العمارة التي تسكن فيها وقال لك أنت لا تعرف شيئًا في الطب، وأن العطار الذي في البلد أفضل منك مائة مرة، ماذا سيكون رد فعلك على هذه الإساءة ؟ وهل ستغضب من هذا الكلام ؟

الطبيب : لن أغضب، وكأني لم أسمع شيئًا، وسوف ابتسم له وانعي عليه حاله.

سلاما : لكن لو صدر هذا الكلام الذي قاله البواب من رئيس القسم الذي تعمل به في الجامعة، ماذا سيكون رد فعلك على هذه الإساءة ؟ وهل ستغضب من هذا الكلام ؟

الطبيب : بالتأكيد سوف أغضب! وأحاول معرفة سبب هذه الإساءة والرد عليها.

سلاما : هذا هو المفتاح، لماذا عندما صدر الكلام من البواب لم تغضب وعندما صدر نفس الكلام من رئيس القسم غضبت ؟

الطبيب : لأن البواب بالنسبة لي غير قادر وغير مؤهل للحكم على مدى الكفاءة المهنية بالنسبة لي، أما بالنسبة لرئيس القسم فالأمر مختلف.

سلاما : سؤال آخر، لو افترضنا أن رئيس القسم المؤهل للحكم قال لك إنك لم تحصل على شهادة الطب من الأساس وأن شهادتك مزورة، هل ستغضب من هذا الكلام بنفس الدرجة السابقة ؟

الطبيب : لن أغضب أساسًا من هذا الكلام، ولن ألقي له بالا، وربما تعاملت معه كما تعاملت مع كلام البواب من قبل.

سلاما : ولماذا اختلف الشعور بالغضب في المرة الثانية عن المرة الأولى ؟

الطبيب : لأن شهادتي غير مزورة، وهذا الكلام لا يمت للحقيقة بأي بصلة.

سلاما : هذا ما يحدث تمامًا مع الطرف الآخر في العلاقة الزوجية، إذا حدث غضب من كلام طرف ما فهذا يدل على وجود بعض الحقيقة في هذا الكلام، وأن من صدر منه هذا الكلام يعتبر بالنسبة لي مؤهلًا للحكم، وكلما كان الغضب أكبر كلما كان ذلك الكلام المتسبب في الغضب مطابقًا للحقيقة بشكل أكبر، وإلا لماذا الغضب؟

الطبيب : أنت بذلك تفترض المثالية في الطرف الآخر، وهذا غير صحيح.

سلاما : نحن في كل هذا الكلام لم نتطرق لا من قريب ولا من بعيد للطرف الآخر، لنفترض أن الطرف الآخر مخطئا مائة بالمائة، لن يغير من الأمر شيء، لأن السؤال هو لماذا تغضب أنت ؟ وليس لماذا تتعامل مع الخطأ، لك كامل الحق في التعامل مع الخطأ وأيضًا مع المخطئ بما تراه مناسبًا ولكن بدون غضب هذا هو المقصد لأن الغضب سبب أساسي في تفاقم المشكلات وعدم القدرة على التعامل معها والسيطرة عليها.

الطبيب : الموضوع يحتاج إلى إعادة ترتيب الأفكار وإعادة صياغتها.

سلاما : وعلى العكس تمامًا، يمكن الاستفادة من وجود الزوجين تحت سقف واحد في الترقي النفسي لكل منهما؛ فهي فرصة ثمينة لرؤية كل طرف لنفسه بصورة أقرب الى الحقيقة في المرآة التي تصاحبه في جميع الأوقات والأحوال والأماكن، ولذلك يمكن لنا أن نضع بعض الجمل الاسترشادية التي يمكن أخذها في الاعتبار؛ لكي نستطيع الاستفادة من هذه العلاقة المميزة في الترقي الروحي.

- **القاعدة الأولى** ... المؤمن مرآة أخيه.
- **القاعدة الثانية** ... إن وجدت خيرًا فاحمد الله وإن وجدت غير ذلك فلا تلومن إلا نفسك.
- **القاعدة الثالثة** ... إبدأ بنفسك ثم بمن تعول.
- **القاعدة الرابعة** ...ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.
- **القاعدة الخامسة** ... خيركم خيركم لأهله.
- **القاعدة السادسة** ... كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول.
- **القاعدة السابعة** ... كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.
- **القاعدة الثامنة** ... كل إبن آدم خطاء.
- **القاعدة التاسعة** ... الغضب يكون من الفعل وليس من الفاعل.
- **القاعدة العاشرة** ... ضع نفسك مكان الآخر وانظر إلى الموضوع بعينه هو.

الطبيب : نحتاج عشرات وعشرات من القواعد حتى نتمكن من ترويض هذه الكائنات والتعامل معها.

سلاما : هنا مكمن الخطورة، ليس المقصود ترويض أحد الطرفين للآخر؛ ولكن المطلوب هو كيف يتعايش كل طرف مع الآخر.

وثانيا، المقصود من كل هذه القواعد الاسترشادية هو أنت (الزوج أو الزوجة) وليس الطرف الآخر.

الطبيب : إذا كان الأمر كذلك فلابد من بعض التوضيح.

سلاما : أعتقد أن الكلام واضح؛ ولكن إذا كان الكلام مقبولًا فالمطلوب ترديد هذه القواعد حتى تستقر في الذهن ويتم التعامل بها بصورة تلقائية.

الطبيب : على الأقل أول قاعدة فقط " *المؤمن مرآة أخيه* "

سلاما : الحركة في المرآة ليست ذاتية؛ ولكنها انعكاس لحركة من يقف أمام المرآة، فإذا كانت الصورة التي في المرآة لا تعجبك؛ فلا يمكن لأي عاقل أن يلوم المرآة في كون الصورة ليست جميلة؛ لأن الصورة التي يراها ما هي إلا مجرد انعكاس لصورته هو، وبذلك فإن تغيير الصورة التي في المرآة سلبًا وإيجابًا إنما يكون نتيجةً لتغيير ما أمامها سلبًا وإيجابًا، فالفاعل في الحقيقة هو أنت، وما تراه من الطرف الآخر ما هو إلا انعكاس لهذا الفعل الذي صدر منك، ولذلك كان أحد الصالحين يقول ***" إني لأجد أثر معصيتي في تعثر دابتي "***، فما هو الرابط بين معصيته هو وتعثر الدابة ؟ الرابط هو أنها دابتي أنا، ولذلك فهم الرجل الصالح أن التعثر الذي

حدث للدابة ما هو إلا رسالة شخصية له هو، فكل ما يحدث من حولك مجرد رسائل شخصية لك أنت، فعليك أن تحسن استقبال الرسالة، ثم بعد ذلك تحاول فهم المقصود من هذه الرسالة، فإذا قمت بفهم مغزى الرسالة جيدًا؛ كانت سببًا في تحسين الصورة الحقيقية لك، وتبعًا لذلك سوف تتحسن الصورة المنعكسة في المرآة التي أمامك، ولا يمكن فعل العكس، بمعنى أنه لا يمكن تحسين الصورة التي في المرآة قبل تحسين الصورة التي أمامها.

الطبيب : كيف تمكنت من العيش بهذه البساطة الشديدة وبكل هذه السكينة؟

سلاما : لأني صدقت كلام النبي- ﷺ - حين قال: " من أصبح منكم آمنًا في سربه معافا في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها"

الطبيب : كل مسلم يصدق كلام النبي - ﷺ -.

سلاما : هل هذه الجملة التي نطقت بها الآن جملة إنشائية أو خبرية؟

الطبيب : جملة خبرية.

سلاما : وما هو تعريف الجملة الخبرية ؟

الطبيب : هي التي تحتمل الصدق والكذب.

سلاما : وما هو تعريف الكذب ؟

الطبيب : الكذب هو نقيض الصدق، وهو الإخبار عن الشيء على خلاف الواقع.

سلاما : اذاً لابد من واقع يصدق أو يكذب الخبر ؟

الطبيب : بالتأكيد!

سلاما : فهل واقع المسلم القلبي يصدق هذا الحديث أو يكذبه ؟

الطبيب : هل لابد أن يعيش المسلم على هذا الحالة التي تعيشها حتى يثبت أنه يصدق الحديث؟

سلاما : المقصود هو أحوال القلوب وليس أفعال الجوارح، سأحكي لك حكاية

كان هناك رجل يعيش في منطقة نائية تحت شجرة بجوار النيل، ولا يمتلك إلا سنارة يصطاد بها في كل يوم سمكة يأكلها.

وكان له صديق يجلس معه بين الحين والحين، وفي أحد الأيام، كان هذا الصديق مسافرًا إلى عاصمة البلاد؛ فأخبر الرجل بسفره، وإذا أراد أي شئ فهو مستعد أن يقضيه له.

فطلب منه هذا الرجل أن يزور صديق له يقيم في العاصمة، ويطلب منه النصيحة.

فسافر الصديق إلى العاصمة، وذهب إلى العنوان الذي معه، وبعدما وصل وجد أن هذا العنوان هو قصر كبير، فظن أن صاحب الإسم لابد أنه يعمل في هذا القصر، فذهب إلى القصر وسأل عن صاحب الاسم، أخبره الحارس أنه ليس بالداخل ولكنه سيحضر بعد قليل، وإذا بالحارس يخبره أن صاحب الإسم الذي يسأل عنه قد وصل، وأنه هو نفسه مالك هذا القصر!

فنظر إليه، فإذا به يحضر في موكب مهيب، فتعجب أن يكون هذا الشخص هو نفسه صديق من يجلس تحت الشجرة، ولما عرف صاحب القصر أنه من طرف صديقه الذي يجلس تحت الشجرة؛ بش له ورحب به ترحيبًا يدل على مدى أهمية من يحمل منه الرسالة، واصطحبه إلى داخل القصر، وقدم له واجب الضيافة وبالغ في إكرامه، فلما أراد أن ينصرف، سأله النصيحة لصديقه كما طلب منه، فقال له صاحب القصر: قل له " أما آن لك أن تخرج الدنيا من قلبك؟ " فلما سمعها إغتاظ جدًا، وتفقد ما حوله وقارن في عقله بين معيشة من قدم النصيحة ومعيشة من قدمت له النصيحة، ونظر إلى صاحب القصر ولم يعلق ولو بكلمة واحدة، ثم انصرف.

ولما عاد لصديقه الذي يعيش تحت الشجرة، أخبره أنه ذهب إلى العنوان وقابل صديقه كما طلب منه، ولكنه يستحى أن يذكر له النصيحة التي قالها؛ حتى لا يزيد من همومه.

ولكنه ألح عليه، وأخبره أنه لابد أن يكون قد أرسل له نصيحة ما، فذكر له ما قاله صاحب القصر وهو يشعر بالخجل من ذكره تلك النصيحة: يقول لك " أما آن لك أن تخرج الدنيا من قلبك؟ "، ثم نظر إلى صديقه فوجده يبكي بكاء شديدًا، وهو يقول: صدق! صدق!

فزاد تعجب الرجل من ردة الفعل الغير متوقعة، وسأله: كيف ذلك! وأنت تعيش كما أرى، ولا تملك سوى سنارة تصطاد بها في كل يوم سمكة تأكلها، وهو يعيش في قصر منيف ويملك من الدنيا الكثير.

فقال له : نعم، هذا صحيح، هو يملك الكثير، ولكن قلبه غير معلق بما يملك، وأما أنا فقلبي معلق بهذه السمكة التي آكلها.

هل سأصطاد اليوم ؟

هل تشبعني ؟

ولذلك فإن الدنيا في يده وليست في قلبه، وأما أنا فالدنيا في قلبي وليست في يدي.

فسأله وما علامة عدم تعلق القلب بالدنيا ؟

قال له علامة عدم تعلق القلب بالدنيا هي

" عدم الفرح بالموجود وعدم الحزن على المفقود "

ولذلك فحالي هذه لا يصح أن تسمى زهدًا ولكنها تسمى بالفقر؛ لأن الفقير لا يملك ما يزهد فيه، ولكن شرط الزهد أن تملك أولًا ثم يأتي بعد ذلك الزهد، ويكون بعدم تعلق القلب بما تملك.

الطبيب : كان لابد من كتابة هذا النقاش المثمر.

سلاما : الكلام مجرد أداة لإيصال المعاني من المتكلم إلى السامع، فإذا استقر المعنى في قلب السامع؛ فقد قام الكلام بأداء الدور المنوط به، ولا حاجة لوجوده بعد ذلك.

نظر الطبيب إلى الساعة، فوجد أن الوقت قد تأخر و يجب عليه المغادرة، ودع الطبيب سلاما وطلب منه أن يزوره في بيته ليتعرف على الأولاد والزوجة، ولكن سلاما لم يرد على الدعوة لا بالإيجاب ولا بالرفض، مجرد ابتسامة فقط.

وبذلك نكون قد أنهينا اليوم السابع من أيام شجرة الجميز.

****

اليوم الثامن

شجرة الجميز

يجلس سلاما وشاكو ينظران إلى النيل كما هو معتاد، وينضم إليهما طبيب العظام الذي اعتاد على الحضور للجلوس تحت شجرة الجميز، وبعد فترة من الجلوس والتأمل تمر الراقصة من أمام الشجرة وتشاهدهم وهم في هذه الحالة من التأمل والسكينة، فتقرر الانضمام إليهم.

الراقصة : السلام عليكم.

سلاما : وعليكم السلام، أهلًا أهلًا!

الطبيب : حتى تحت الشجرة !

سلاما : من الواضح أن هناك معرفة سابقة.

الطبيب : نقيم في نفس العمارة.

الراقصة : وفي نفس الطابق أيضًا، ولكن الدكتور غير سعيد بهذا الوضع.

الطبيب : لماذا ؟ صباح الخير يا جاري أنت في حالك وأنا في حالي.

الراقصة : لكن لابد من احترام الجار والتعامل معه بأدب.

الطبيب : وماذا فعلت لكل هذا ؟

الراقصة : عندما يحتاج الجار إلى مساعدة ولا يجد من الجيران استجابة؛ فهذا ليس من الشهامة في شيء.

الطبيب : هذا إذا كانت الإصابة بسبب طبيعي مشروع، أما إذا كانت بسبب غير مشروع فالوضع عندها يختلف.

الراقصة : لا دخل للسبب في ذلك، أنت من واجبك علاج المريض بغض النظر عن سبب المرض.

الطبيب : لا الأمر يختلف تماما، خصوصًا إذا كان السبب معروف وغير محترم أو ينافي الآداب العامة للمجتمع وحرام أيضًا، ويدخل صاحبه جهنم.

الراقصة : يظن الأطباء أنهم فئة مختلفةً عن باقي البشر، ويجوز لهم الحكم من هو المخطئ ومن هو المصيب، مع أنه ليس من حق أحد أن ينصب من نفسه حكمًا على الناس يدخل هذه الجنة ويدخل هذا النار، فهناك رب وهو الوحيد الذي يملك هذا الحق، والكل بعد ذلك عبيد متساويين في الحقوق والواجبات، فأنت تعمل عمل مقابل المال وأنا أيضًا أعمل عمل مقابل المال.

الطبيب : لا يمكن أبدًا بأي حال المقارنة بين العمل في المشفى والعمل في الملهى.

الراقصة : لماذا ؟ المشفى لا يحتاج الدخول إليه إلا المرضى، وكذلك الملهى لا يحتاج الدخول إليه إلا المرضى أيضًا، الفرق أن من يحتاج المشفى الأمراض البدنية ومن يحتاج الملهى الأمراض النفسية، ففي النهاية كلهم مرضى.

الطبيب : مجرد التفكير في المقارنة بين المشفى والملهى عبث، لا يمكن أن أدخل فيه.

الراقصة : لماذا؟ هل تنسحب من المناقشة **!**

الطبيب : مناقشة ماذا ؟ هذه مقارنة لا يمكن أن يتصورها عاقل.

الراقصة : إذا كنت تريد الانسحاب؛ فلك كامل الحق، ولكن فقط أريدك أن تعلن الانسحاب .

الطبيب : لن أعلن انسحابي**!** ولكن نريد وضع أسس سليمة لهذا النقاش، فلا يمكن أن يتكلم كل طرف كما يحلو له بدون أي قواعد منظمة للحوار.

الراقصة : أنا لا أفهم ذلك، أريد ردود أقتنع بها ليس إلا، وأنا من جانبي أتعهد بأن أكون صادقة وصريحة مع نفسي أولًا ثم معكم.

الطبيب : تمام جدًا، فهمت المقصود، تريدين توضيح المعنى بطريقة بسيطة.

الراقصة : لا**!** بطريقة بسيطة جدًا.

الطبيب : الحالات المرضية التي تدخل الى المشفى تتلقى العلاج وتشفى، ثم بعد ذلك تغادر المشفى، ولكن يختلف الحال بالنسبة للملهى، فإذا سلمنا أنها حالات مرضية؛ فهذه الحالات التي تدخل الى الملهى لا تشفى أبدًا بل على العكس، تعود مرات ومرات إلى الملهى و يستفحل المرض، ولا يتم علاجه فهذا تم شفائه وهذا تتطور معه المرض فأصبح مرضا مزمنًا، يلازمه بقية حياته، هل هذا التوضيح يمكن أن يكون مقنعًا بالنسبة لك ؟

الراقصة : لا، لأن هناك أمراض مزمنة أيضًا تلازم المريض بقية حياته، ولا يشفي منها أبدًا مثل السكري والضغط والغسيل الكلوي، علاوة على الأمراض النفسية التي لا يوجد لها علاج ويجب أن يتعايش معها المريض.

الطبيب : هذا جدال عقيم، لا جدوى منه أبدًا، من الآخر من يعمل في المشفى يقوم بعمل يسمى في الشرع " حلال "، ومن يعمل في الملهى يقوم بعمل يسمى في الشرع " حرام "، فكل من يعمل في المشفى يأخذ حسنات، وكل من يعمل في الملهى يأخذ سيئات، هذا كل ما في الأمر فمن يعمل هنا طائع، ومن يعمل هنا عاصي، وعلى كل الأحوال أعلن إنسحابي من النقاش.

الراقصة : وما أدراك أن من يدخل إلى الملهى يستمر في التردد عليه ؟

وما أدراك أن هذا الدخول يمكن أن يكون سببًا في تغيير حاله إلى الأفضل ؟

وما أدراك أن من يدخل إلى هذا الملهى ربما ينهي حياته بخير ؟

فنحن لا نعرف ماذا سيحدث في المستقبل، فكل ما يحدث من حولنا ما هو إلا رسائل لنا، فمن يتمكن من فهم هذه الرسائل ويتعامل معها بصورة صحيحة يفوز، ومن يفهمها بصورة خاطئة يخسر.

ولاحظ سلاما أن حدة النقاش تطورت، وبدأت الأصوات في الإرتفاع، والغضب قد تملك من الطرفين، فأراد تهدئة الوضع من خلال حكاية قصة يمكن أن تساعد في ذلك.

سلاما : كان يوجد عالمًا كبيرًا إسمه الشيخ عبدالقادر، وكان هذا الشيخ يسير في الطريق برفقة بعض تلامذته، فشاهد الشيخ رجلًا سكرانًا يجلس على كومة من القمامة، فنظر إليه الشيخ وأراد أن يقدم له المساعدة، فعرف السكران الشيخ، فنظر السكران إلى الشيخ **وقال** :

السكران : أقادر أم غير قادر يا عبد القادر ؟

فرد عليه الشيخ وهو يبتسم :

الشيخ : بلى قادر.

السكران : أقادر أم غير قادر يا عبد القادر ؟

فابتسم الشيخ مرةً أخرى

الشيخ : بلى قادر

السكران : أقادر أم غير قادر يا عبد القادر ؟

فبكى الشيخ بكاء شديدًا، وأشار إليه بيده أن يتوقف .

الشيخ : بلى قادر! بلى قادر!

فتعجب تلامذة الشيخ من ردة فعله، فسأله أحدهم عن ذلك.

الشيخ : في المرة الأولى عندما سألني "أقادر أم غير قادر"، كان مقصده هل ربك قادر على ان يتوب علي؟ فقلت نعم قادر، وفي المرة الثانية قال هل ربك قادر على أن يجعلني مكانك؟ قلت نعم قادر، وأما في المرة الثالثة قال هل ربك قادر على أن يجعلك مكاني؟ فبكيت خوفًا من ذلك.

الطبيب : لكننا لم نسمع رأيك في هذا الموضوع.

الراقصة : نعم، تركتنا نتكلم كل هذا الوقت ولم تتلفظ بكلمة واحدة.

سلاما : الحديث مفيد ومعمق، فكان لابد من الإنصات الجيد.

الطبيب : لا بأس، ولكن نريد منك تعقيبًا على كل ما سمعت.

الراقصة : نعم، تعقيبًا من جملة واحدة فقط.

الطبيب : جملة واحدة فكرة جيدة، ولكن هذه الجملة تكون تعبيرًا عن المشترك بين المشفى والملهى، وليس العكس.

سلاما : جملة واحدة فقط تعبر عن المشترك بين المشفى والملهى بسيطة جدًا :

" *البعد عنهم غنيمة* ".

ضحك الطبيب حتى دمعت عيناه واستلقى على ظهره، وهو يردد

الطبيب : فعلًا **" *البعد عنهم غنيمة* "**

ولكن الجملة كان لها وقعًا مختلفًا على الراقصة، فتنهدت بشدة ونظرت إلى النيل، وبدا عليها الندم والحزن عندما سمعت هذه الكلمات.

فيمكن أن تكون الكلمات واحدة ولكن التأثير يختلف على كل مستمع.

ولاحظ سلاما والطبيب ذلك، فأراد سلاما التعقيب على إختلاف مردود الكلمات بإختلاف السامع.

سلاما : ولذلك قالوا في شأن اللغة إن.

" الإستعمال من صفة المتكلم، والحمل من صفة السامع، والوضع قبلهما"

فإن اللغة أداة لإيصال المعنى المراد من عقل المتكلم إلى السامع، ولذلك فإن المتكلم يستعمل اللغة للتعبير عما يجول بداخله من معاني، وأما المستمع فيحمل ما سمعه من مفردات اللغة على المعنى المخزون في عقله لكل لفظ من ألفاظ اللغة، وبناءً عليه؛ فإن وضع الألفاظ لما يرادفها من المعاني لابد أن يكون موجودًا قبل كلام المتكلم وسمع السامع.

ونتيجة لذلك؛ يمكن أن يكون للجملة الواحدة وقعًا مختلفًا باختلاف حال السامع، فإذا أردنا التفاهم مع بعضنا البعض؛ فلابد من تحرير الألفاظ والمعاني في البداية، وذلك لأن معاني الألفاظ لم تعد موحدة كما كانت قبل ذلك، وهذا أيضًا يعيدنا إلى " نظرية المقياس "، فلابد من توحيد مقياس الأسماء وما يقابلها من مسميات؛ حتى يكون الحوار مثمرًا.

الراقصة : أفهم من ذلك أنه لابد أن نتفق على معنى الكلام قبل أن نتكلم بالكلام، ولكي نتفق على معنى الكلام لابد أن نستخدم الكلام، يعني بعبارة بسيطة البيضة ولا الفرخة !

سلاما : الأمر أبسط من ذلك، نضرب مثالًا للتوضيح، ويكون هذا المثال بين لغتين مختلفتين حتى يكون واضحًا بصورة أكبر، فمثلًا لو أردنا التعبير عن كلمة معينة في اللغة العربية، وأردنا ترجمة معناها للغة الإنجليزية ماذا نفعل ؟ يقوم المترجم بالبحث عن معنى هذه الكلمة المراد ترجمتها في اللغة العربية، وأيضًا يبحث عما يطابق هذا المعنى في اللغة الإنجليزية، ثم بعد ذلك يقوم بوضع الكلمة الإنجليزية المرادفة للكلمة العربية محل الترجمة، وهذا ما يحدث تمامًا وبصورة تلقائية في كل كلمة ننطقها أو نسمعها، ولكن إذا اختلفت الكلمة المترجمة في المعنى عن الكلمة الأصلية نتيجةً لعدم الدقة من المترجم؛ يحدث اختلال في مردود هذه الكلمة بالنسبة للمتكلم والسمع، فيكون مقصد المتكلم من النطق بهذه الكلمة معنى معين استقر في ذهنه، ولكن المستمع يحملها على معنى مختلف استقر في ذهنه هو أيضًا، ونتيجة لهذا الخطأ في الترجمة يمكن أن تحدث صدامات كثيرة على كل المستويات.

الراقصة : لهذه الدرجة ! خطأ واحد وفي كلمة واحدة يؤدي إلى كل ذلك؟

سلاما : على سبيل المثال، كلمة علم في اللغة العربية تترجم في اللغة الإنجليزية إلى "science".

ولكن بالرجوع إلى تعريف العلم في اللغة العربية، نجد أن العلم هو نقيض الجهل وهو : إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا.

ولكن إذا دققنا في البحث عن معنى "science" في اللغة الإنجليزية فسنجد أنها تعني العلم التجريبي، أي العلم الذي يمكن الاستدلال عليه عن طريق المشاهدة الحسية، ولا تعني العلم الذي هو نقيض الجهل، ونتيجة لذلك ترتب على عدم التطابق في المعنى عند الفريقين بعض الإشكاليات التي نعاني منها إلى وقتنا الحاض، فنجد أنه عندما نريد أن نقوم بتطبيق هذا المفهوم على الدين.

فيطرح البعض هذا السؤال وهو: هل الدين علم أم أن الدين ليس علمًا ؟

فهناك فريقين أحدهما يرى أن الدين ليس علمًا، والآخر يرى أن الدين علم، فنحن نجد أن الفريق الأول قد تبنى وجهة نظر الثقافة الغربية التي تقول "Religion is not science" وهذا معناه طبقًا للثقافة الغربية التي قيلت فيها هذه الجملة: أن الدين ليس علمًا تجريبيًا، وهذا صحيح مائة في المائة، ولكن عندما يتبناها البعض؛

يترجمها ترجمة حرفية على أساس الترجمة المنقوصة لكلمة علم، فنجد أنه قد تبنى معنى مخالفًا للمعنى الأصلي الذي قيلت من أجله هذه الجملة، فيتم ترجمة الجملة على غير مرادها، وتكون الدين ليس علمًا، وتبدأ بعد ذلك النقاشات والاتهامات المتبادلة بين الفريقين، فصاحب الرأي الأول يقول أن من حق كل مسلم أن يتكلم في أمر الدين؛ لأن الدين ليس علمًا، ولذلك فلا يشترط أن يتوفر في كل من يتكلم في أمر الدين الشروط التي يجب توافرها في كل من يتحدث في أي علم من العلوم، وذلك ببساطة شديدة لأن الدين من وجهة نظره ليس علمًا، وأما صاحب الرأي الذي يتبنى مقولة أن الدين علم؛ فيقول لابد من توافر الشروط والأدوات اللازمة والمطلوبة علميًا في كل من يتصدر للحديث في شأن الدين، وذلك ببساطة شديدة لأن الدين علم، ويستمر الجدل بين الفريقين إلى الآن، وذلك بسبب بسيط وهو عدم تطابق معنى الكلام في ذهن المتكلم مع المعنى في ذهن السامع.

الراقصة : الآن فقط تأكدت أني كيس جوافة.

ضحك الطبيب من هذا التعبير المفاجئ، ولكنه ربما يدل على عقلية من طراز خاص غير إعتيادي.

الطبيب : طرأ على ذهني سؤالًا مفاجئًا، ولا أدري لماذا، ولكن ربما ببركة هذه الشجرة.

المهم السؤال هو: هل يمكن أن يوجد حلًا ولو نظريًا يوفر الرخاء والاستقرار والأمان للعالم؟

الراقصة : ويكون في جملة واحدة أيضًا، ومن كلمتين فقط؛ حتى أتمكن من حفظها.

سلاما : جملة واحدة ! ومن كلمتين! الحل هو " شجرة الجميز ".

ضحك الطبيب والراقصة من هذا الحل المختصر والغير متوقع.

الطبيب : الحل هو شجرة الجميز!

الراقصة : الحل هو شجرة الجميز! حفظتها لكن لم أفهم منها شيئًا.

سلاما : ننظر معًا إلى ما يميز شجرة الجميز، فسنجد أن ثمار شجرة الجميز ملكية عامة، وأوراقها ملكية عامة، وفروعها ملكية عامة، وساقها ملكية عامة، وجذورها ملكية عامة، والتربة التي نبتت فيها ملكية عامة، والماء الذي يمر من أمامها ملكية عامة، والهواء الذي تتنفسه ملكية عامة، والفضاء الذي تعيش فيه ملكية عامة، ومعنى ذلك أن كل شجرة الجميز ملكية عامة، أي أن كل الشجرة لكل الناس، وهذا هو تمامًا ما قاله الشيخ الشعراوي- رحمه الله- في الأمم المتحدة، عندما كان يخطب الجمعة في المسجد الملحق بالأمم المتحدة، قال- رحمه الله: " آية واحدة من كتاب الله تعالى تضمن الرخاء والاستقرار والأمان للعالم، وهي قوله تعالى:

*والأرض وضعها للأنام *، الأرض كل الأرض، والأنام كل

الأنام، بمعنى أن " كل الأرض لكل الأنام "، وبذلك لا توجد أرض بدون رجال، ولا رجال بدون أرض، فيحدث توازن بين الموارد والسكان، ولذلك يجب فتح الحدود بين الدول، ويكون التنقل بوضع اشتراطات مبسطة للعبور في كل اتجاه، وفي بداية التنفيذ سوف نجد تكدسًا في بعض الأماكن، ولكن بمرور الوقت سيحدث استطراق وتعود الأمور إلى الإتزان الطبيعي.

الراقصة : هذا كافي جدًا حتى لا اتشتت، شجرة الجميز تعنى:

" كل الأرض لكل الأنام "، فهمت المقصود.

وبعد ذلك الحديث المطول، غادر الطبيب والراقصة، وظل سلاما وشاكو تحت شجرة الجميز.

وبذلك نكون قد انهينا اليوم الثامن من أيام الشجرة.

****

اليوم التاسع

يتجول سلاما وشاكو بعد العودة من عند عم عوض، وشاهد سلاما رجلًا يحاول تجميع أكياس البلاستيك من النيل ويجتهد في ذلك بكل وسيلة متاحة، اقترب سلاما من الرجل، وحاول التعرف على أحواله، ولماذا يفعل ذلك؟ وهل يحتاج أي مساعدة؟.

سلاما : السلام عليكم.

رجل البلاستيك : وعليكم السلام.

سلاما : هل تحتاج أي مساعدة؟

رجل البلاستيك : ولا ألف مساعدة يمكن أن تفيد! ولكن أحاول أن أعمل ما بوسعي بقدر الإمكان؛ حتى لا أكون مقصرًا في حق نفسي، وأعلم جيدًا أن ذلك لن يجدي نفعًا، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة.

سلاما : ولماذا اذاً كل هذا المجهود المرهق ؟

رجل البلاستيك : ببساطة، كلما نظرت إلى أكياس البلاستيك وما تفعله من تدمير البيئة والقضاء على إمكانية العيش على الكوكب؛ أشعر بضيق شديد، ولا أستطيع طرد هذه الفكرة من رأسي؛ حتى أجد نفسي على هذه الحالة التي تراني عليها، واستمر في ذلك حتى أصل إلى الإرهاق الكامل وعدم القدرة على مواصلة العمل، وهكذا يتكرر الحال في كل يوم تقريبًا، وأعمل بكل طريقة على ألا أكون

سببًا في تدمير الكوكب ولو بنسبة بسيطة، ولكن الأمر غاية في الصعوبة، فبمجرد أنك لا تريد التسبب في التلوث البيئي؛ تجد نفسك غير قادر على العيش بصورة طبيعية، ولابد من بذل مجهود غير عادي لكي تتمكن من القيام بجزء ولو ضئيل جدًا، فنجد أنه في الطقوس اليومية لكل إنسان لابد أن تكون سببًا في التلوث مهما كانت قدرتك على المحاولة للحفاظ على البيئة.

الحقيقة أن الحياة على كوكب الأرض ستصبح مستحيلة بسبب سلوكياتنا نحن البشر، فكلنا جميعًا في هذا الوضع المأساوي، ومع ذلك، مستمرون في العيش بنفس الطريقة وبنفس الأسلوب دون توقف، أو حتى النظر إلى العواقب التي تترتب على هذا السلوك.

المائة سنة الأخيرة هي أسوأ فترة مرت في حياة الكرة الأرضية على مر السنين، فلم تشهد البشرية مثل هذا العبث وهذه السلوكيات الغير منضبطة والخارجة عن العقل والمنطق.

فأنا لا أستطيع أن أساهم ولو بجزء صغير في هذا العبث، وهذه السلوكيات الغير سوية، وأكون شريكًا في إيصال الكوكب الذي جئنا إليه وهو صالح للحياة إلى حالة لن يكون صالحًا بعدها للحياة مرة أخرى، فنحن لن نترك للأجيال القادمة أي أمل ولا أي فرصة للحياة، فقد قمنا بتلويث الهواء والماء والتربة، وما زاد الأمر تعقيدًا عندما نعلم أننا نلوث بملوثات تسمى ملوثات أبدية، أي أنها تحتاج إلى مئات السنين أو إلى ألوف السنين كي تتحلل، أو يمكن ألا تتحلل أبدًا! ولا نكتفي بذلك، بل هناك تلوث نووي وتلوث اشعاعي.

البشر يعلمون هذه الحقائق تماما، ولكن مع ذلك ردود الفعل غير مفهومة بالمرة، كيف يستطيع أي إنسان طبيعي أن يمارس حياته اليومية ويتصرف بنفس السلوكيات التي يعرف يقينًا أنها تؤدي إلى تدمير الكوكب ؟ ولا أعرف كيف يمتلك هذه القدرة على التعايش؟ والأكثر إثارة للدهشة هو الاستمتاع بهذا السلوك المدمر للبيئة!

هذا كل ما في الأمر، وهذه هي الحكاية فإذا أظهر الشخص أي قدر من الانزعاج أو عدم الرضى عن هذه السلوكيات؛ يواجه برد فعل غير متوقع ورافض لهذا الاعتراض، فمثلًا في بيتك ومع أسرتك، إذا كنت حريصًا على إظهار عدم الرضا عن هذه السلوكيات، وأنه يجب علينا أن نتعلم كيف نعيش بطريقة لا تؤدي الى كل هذا العبث البيئي، تجد أن كلا من الزوجة والأولاد يشعرك بأنك تضيق عليهم، وأن هذا البيت أصبح بمثابة السجن، وهذا فقط لأنك تطلب مجرد عدم إضاءة الأماكن التي ليس لها داعي أو محاولة الاستهلاك الرشيد للمياه أو التقليل من الاستهلاك الغير ضروري وهكذا، ولكن زوجتي وأولادي أصبحوا غير قادرين على تحمل هذه التصرفات وهذا التضييق.

من وجهة نظرهم يمكن أن يكون عندهم بعض الحق، لأنهم قد اعتادوا على هذه السلوكيات وعلى أسلوب الحياة المفرط في الاستهلاك، ولذلك أصبحت غير قادر على البقاء في المنزل فترات طويلة، وفي أوقات الفراغ أقوم بما تراه، وهذا هو كل شئ ببساطة.

سلاما : ولكن لماذا النيل ؟

رجل البلاستيك : لأن الماء مصدر الحياة على الأرض، فإذا مات الماء وهو السبب في الحياة؛ فسوف تموت تبعًا لذلك جميع مظاهر الحياة، فإذا كان موت الماء ظاهريًا؛ كان الموت ظاهريًا، وإذا كان موت الماء معنويا؛ كان الموت معنويًا، فنحن سوف نشرب ماءً ميتًا.

سلاما : ولماذا البلاستيك ؟

رجل البلاستيك : لأنه كما أن هناك العصر الطباشيري والعصر الحجري والعصر الجليدي، فيمكن ببساطة شديدة أن نطلق مجازًا على عصرنا الحاضر العصر البلاستيكي.

سلاما : العصر البلاستيكي! مصطلح مقبول وله دلالة قوية.

رجل البلاستيك : لكني ألاحظ أنك لا تتكلم، ولا تريد حتى الكلام.

سلاما : عندما يقوم شخص بعرض مشكلة ما في أمر لم أفكر فيه قبل ذلك، أجد أني بمجرد سماع المشكلة والإنصات لها يكون الحل قد وضح في ذهني، وبدا واضحًا بصورة كبيرة، وهذا يتكرر في مواقف متعددة، ولا أعرف سببًا لذلك.

رجل البلاستيك : لأنك تمتلك ملكة الإنصات وحسن الاستماع، وهذا من وجهة نظري هو السبب فيما تقول، ولكن الأمر الأهم حاليًا هو أنك تريد أن تقول أن الحل قد برز في ذهنك، هل ما فهمته صحيحًا!

سلاما : بصورة مبدئية يمكن أن نقول ذلك، ولكنها حلول وأفكار تحتاج إلى المراجعة المتخصصة.

رجل البلاستيك : نسمع أولًا وبعد ذلك نبحث عن المتخصصة.

سلاما : من المؤكد أن نمط السلوك الاستهلاكي للبشر هو المسؤول الأول والأخير عن التلوث البيئي الذي نعاني منه الآن، ولذلك يجب علينا في البداية القيام بتحليل هذا السلوك الاستهلاكي؛ حتى نتمكن من التعامل معه بصورة صحيحة.

يوجد ثلاث دوائر استهلاكية يتحرك فيها الإنسان: دائرة الضروريات، ودائرة الحاجات، ودائرة التحسينات، ولكننا الآن نلاحظ أن الثلاث دوائر أصبحت مختلطة متداخلة، ولا تستطيع أن تفصل بينهم، فلكل فرد مقياسًا مختلفًا لرسم وتحديد كل دائرة من هذه الدوائر، ولا يمكن أن تستخدم نفس المقياس على كل الأفراد، فكل فرد له مقياسًا مختلفًا عن الآخر، ولا تستطيع أن تجبر أحدًا على استخدام مقياس الآخر، ومن هنا أصبحت المشكلة معقدة.

فإذا أردنا تعديل السلوك البشري؛ فعلينا أولًا وضع مقياسًا موحدًا ومقبولًا لجميع البشر، ولكن وجود هذا المقياس غير ممكن، فكيف نستطيع أن نحدد الضروريات أو الحاجيات أو التحسينات الاستهلاكية لكل البشر مع وجود كل هذا الاختلاف بين أفراد بني آدم؟ فعلى سبيل المثال: تجد إنسانًا يقول لك أنه لا يستطيع أن

يبدأ يومه إلا بعد شرب كوبًا من القهوة، وهو صادق في ذلك تماما، ولكن هذا الكلام يمكن أن يمثل بالنسبة لشخص آخر مجرد ترف ورفاهية مرفوضة يجب التصدي لها ومنها، فنحن في زمان اختلطت فيه الأمور وتداخلت بصورة كبيرة تجعلنا غير قادرين على القيام بتحديد المقياس الاستهلاكي بصورة واقعية لكل الأفراد؛ حتى نتمكن من وضع مقياسًا واحدًا نضبط به السلوك الاستهلاكي للبشرية، وبذلك نستطيع السيطرة على التلوث البيئي الناجم من سوء الاستهلاك، و من هنا فإن الحل يبدأ من السماح لكل فرد بتحديد المقياس الاستهلاكي الخاص به.

رجل البلاستيك : ولكن هذا هو الحاصل الآن في واقعنا المعاصر، كل فرد له مقياسه الاستهلاكي الخاص به، ويقوم هذا المقياس بالتحكم في سلوكه الاستهلاكي.

سلاما : هذا صحيح، ومن هنا يبدأ الحل، وهو في إجبار الفرد على تعديل سلوكه الاستهلاكي، ولكن أيضًا طبقًا للمقياس الخاص به.

رجل البلاستيك : حلًا ممتازًا! الجمع بين تعديل السلوك الاستهلاكي وخصوصية المقياس الاستهلاكي لكل فرد في آن واحد، ولكن كيف ؟

سلاما : الضريبة الاستهلاكية، هذا هو الحل بكل بساطة.

رجل البلاستيك : الضريبة الاستهلاكية ؟ وما هو الفرق بينها وبين الضرائب الأخرى ؟

سلاما : الفرق كبير، الضريبة الاستهلاكية تكون على الاستهلاك، وليس على السلعة الضريبة، الآن تكون على السلعة، بمعنى أن أي فرد يشتري السلعة يسدد نفس الضريبة دون اعتبار لمستواه الاستهلاكي، ولكن في الضريبة الاستهلاكية الاعتبار الأول في تحديد قيمة الضريبة هو الإنفاق الاستهلاكي للفرد، مثال: نحدد سلعة ما ولتكن كيس من البلاستيك تكلفته واحد جنيه (مائة قرش)، فإذا أراد شخصان شراء هذا الكيس، سوف نحدد قيمة الضريبة الاستهلاكية بناءً على قيمة الاستهلاك الشهري لكل شخص منهما؛ **فمثلًا**:

شخص ١ : القيمة الاستهلاكية له في هذا الشهر كانت ألف جنيه اذاً الضريبة الاستهلاكية بالنسبة له الخاصة بالكيس ستكون واحد في المائة ولذلك سوف يكون سعر الكيس بالنسبة له (مائة وواحد قرش).

شخص ٢ : القيمة الاستهلاكية له في هذا الشهر كانت عشرة آلاف جنيه اذاً الضريبة الاستهلاكية بالنسبة له الخاصة بالكيس ستكون عشرة في المائة، ولذلك سوف يكون سعر البيع بالنسبة له (مائة وعشرة قرش).

وبهذه الطريقة سوف تجبر الفرد على تعديل السلوك الاستهلاكي، وأيضًا يحدد الفرد أولويات الاستهلاك الخاصة به طبقًا للمقياس الاستهلاكي الخاص به وأيضًا سوف يتحمل الفرد الأكثر استهلاكًا قيمة مادية أكبر؛ نتيجة لأنه كان أكثر تلويثًا للبيئة؛ نتيجةً لكثرة الاستهلاك، وبذلك يكون هناك عدالة استهلاكية أو عدالة تلوثية إن صح التعبير.

رجل البلاستيك : حل مقبول، ويمكن تنفيذه على أرض الواقع، من الآن وصاعدًا لن أجمع البلاستيك من النيل مرةً أخرى، وستكون المهمة الأولى لي في هذه الدنيا هي فرض الضريبة الاستهلاكية في جميع أنحاء العالم عاجلًا وليس آجلًا، وسوف تكون خطوة البداية هي إنشاء جمعية " رجل البلاستيك للضريبة الاستهلاكية ".

سلاما : رجل البلاستيك ! رجل البلاستيك !

أراد سلاما اكمال المسير ولكن شاكو كان له رأي آخر، جلس شاكو أمام سلاما معلنًا أنه قد حان وقت العودة إلى شجرة الجميز، وفعلًا امتثل سلاما على الفور وعاد أدراجه إلى الشجرة.

وبذلك نكون قد إنتهينا من أحداث اليوم التاسع، وعاد سلاما وشاكو إلى شجرة الجميز مرة أخرى.

****

اليوم العاشر

شجرة الجميز

يجلس سلاما بجوار شاكو تحت شجرة الجميز، وينظران معًا إلى النيل في هدوء وسكينة، وفي هذه الأثناء تحضر الراقصة.

الراقصة : لن أذهب إلى العمل، وسأقضي معكم كامل اليوم.

سلاما : تقصدين شاكو وشجرة الجميز وسلاما، لأنك قلت معكم.

الراقصة : لا أعرف، المهم أني قد فرغت نفسي للإستمتاع بهذا اليوم .

سلاما : على الرحب والسعة.

الراقصة : أولًا أريد أن أعرف، كيف تصطاد السمك ؟

سلاما : حالًا!

أخرج سلاما السنارة من جيبه، وبحث عن طعم في التربة، ووضع الطعم في الخطاف، وقام بربط طرف الخيط في فرع من أفرع شجرة الجميز، والطرف الآخر الذي فيه الطعم وضعه في الماء.

سلاما : عندما يتحرك فرع الشجرة؛ فقد حان وقت الطعام، هذه هي طريقة الحصول على الطعام الطازج.

الراقصة : بهذه السهولة !

سلاما : الحياة سهلة، ولكننا نصعبها على أنفسنا سواء كان ذلك بوعي أو بدون وعي، فمثلًا يجتهد البشر كثيرًا في تحضير الطعام بصورة غير منطقية وغير مفهومة، فهناك آلاف من الوصفات وطرق التقديم وأدوات الزينة والكتب الخاصة بالطبخ والمناهج التعليمية والأواني والمطاعم والبهارات والمشروبات وغيرها الكثير والكثير، وكل ذلك من أجل الحصول على متعة الطعام التي يشعر بها من خلال مرور الطعام على منطقة طرف اللسان، وهي الخاصة بحاسة التذوق، مع العلم أن جميع أصناف الطعام تتساوى بعد أن تتخطى هذا الجزء من طرف اللسان.

الراقصة : ولكن العين أيضًا تستمتع بالطعام، وكذلك حاسة الشم واللمس.

سلاما : نعم تستمتع في حالة واحدة، وهي أنها تكمل هذه المتعة بالذوق، فإذا شاهد الإنسان الطعام وشم رائحته ولمسه بيده ولم يتذوقه فسيكون تأثير هذه المتع عكسيًا، ويمكن أن نعتبره نوعًا من أنواع التعذيب، وأيضًا لا يمكن الاكتفاء بالتذوق دون البلع، وإلا كان ذلك أبلغ في عملية التعذيب، فالأصل في شهوة الطعام هو البلع والأكل أي الإمتلاء، ولذلك قالوا قديمًا " خير الإدام الجوع "، والإدام هو ما يأكل مع الخبز، ومعنى ذلك أن المؤثر الإيجابي في عملية التذوق هو الإنسان وليس الطعام، فيمكن أن يكون الطعام مذاقه لذيذًا بالنسبة لشخص ما، ويكون نفس الطعام غير لذيذ لشخص آخر، فالعبرة بالإنسان وليس بالطعام، فإذا كان الإنسان جائعًا؛ فسوف يكون الامتلاء هو المقصود من الأكل، فإذا تم البدء

في إشباع الرغبة الأصلية وهي الامتلاء؛ فسيتم تبعًا لذلك إشباع باقي الحواس من التذوق والشم واللمس والنظر، فإذا أراد الإنسان الاستمتاع بكل حواسه بمنظومة الطعام؛ فعليه بالجوع، فالجوع هو العلاج السحري لمن يعاني من عدم الاستمتاع بالطعام.

الراقصة : بمناسبة الحديث عن الطعام، في المهنة التي أعمل بها يعتبر المظهر الخارجي أهم عامل يجب أن يؤخذ في الاعتبار، ولذلك فأعاني بصورة يومية من الحمية وكيفية التعايش معها.

سلاما : أتبع نظام غذائي ولكنه لا يحرم الفرد من أي صنف من أصناف الطعام، ومع ذلك يعطي نتيجةً جيدة.

الراقصة : تأكل كل ما تريد دون قيود **!**

سلاما : نعم.

الراقصة : وكيف يكون ذلك ؟

سلاما : ببساطة بتخصيص نصف ساعة فقط في اليوم للطعام، وبعد ذلك في سائر اليوم لا أتناول إلا الماء فقط، وفي هذه النصف ساعة أتناول كل ما أريد دون قيود نوعية أو حدود كمية.

الراقصة : ولكنه أمر ليس بالهين.

سلاما : وهناك تجربة أعتقد أنه ينبغي على كل إنسان أن يقوم بها ولو مرة واحدة في العمر على أقل تقدير، وسوف يكون لها بالغ الأثر في سلوكه بالكامل وفي نظرته للحياة.

الراقصة : لهذه الدرجة من الاهمية ؟ وحتى ولو مرة واحدة **!** وماهي هذه التجربة الفريدة ؟

سلاما : الإمتناع عن الطعام لمدة ثلاثة أيام متواصلة ولا تتناول إلا الماء فقط، وبالتأكيد هذا لمن لا يعاني من أمراض تمنع ذلك، وهذه التجربة ستجعل الإنسان ينظر إلى الحياة بمنظور مختلف تمامًا عن نظرته قبل التجربة.

الراقصة : سأحاول، ولكن لا أعدك بالتمكن من ذلك؛ لأنه ليس بالأمر اليسير.

سلاما : ولكن الأمر يستحق المحاولة أكثر من مرة.

الراقصة : أريد أن أطلب منك طلبًا، أريد أن يكون هذا اليوم يومًا بلا أي قيود.

سلاما : بلا أي قيود **!**

الراقصة : نعم**!** بلا أي قيود على الأفكار ولا على الكلام.

أريد أن أتحدث بكل ما يخطر في بالي دون قيد أو شرط من غير أي قيد من القيود التي تجعلك تفكر ألف مرةً قبل أي تنطق بأي كلمة، وهذا يجعلك تشعر بالضيق وعدم التلقائية، وأيضًا تتعامل مع المجتمع بأكثر من شخصية؛ حتى أصبح الفرد منا لا يتذكر شخصيته الحقيقية الخاصة به، وهذا يشعرك بعدم الاتزان وعدم الطمأنينة.

سلاما : هذا ما يسمى بفقدان الهوية، والهوية معناها هو هو، يعني هو في داخل الشخصية وهو في خارج الشخصية، وفقدان أو انعدام الهوية معناه أن هو في الداخل مختلف عن هو في الخارج، وهذا له آثار سلبية على الفرد والمجتمع.

الراقصة : لذلك أريد أن أتحدث في كل شئ بدون خطوط حمراء.

سلاما : أمامك مستمع من الدرجة الأولى، لا يكل ولا يمل من الاستماع والإنصات والصمت.

الراقصة : من هنا نبدأ يا عاشق الصمت، كيف وصلت إلى هذا الحال من عشق الصمت والاستمتاع به ؟

سلاما : يمكن إعادة صياغة السؤال ليصبح كيف بدأت بالتدريب على الصمت والاستماع ؟ الجواب هو: من الأذان.

الراقصة : الأذان الذي نسمعه كل يوم ؟

سلاما : نعم، سمعت الخطيب يوم الجمعة وهو يقول أن الرسول- ﷺ – قال:" إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي"، وعزمت في نفسي على أن أقوم بتطبيق هذا الأمر بشكل مباشر ودون أي تأجيل، فبدأت كلما سمعت المؤذن أتوقف عن الكلام مباشرةً، مهما كان الأمر ومهما بلغت درجة أهميته، ثم بعد ذلك أبدأ في ترديد كلمات الأذان، ومع مرور الوقت تطور الحال من مجرد الصمت والاستماع إلى التفكير والتعمق في ما أسمع، فبمجرد الأدب مع الأذان وصلت إلى حالة من الشعور بالراحة لم أشعر بها قبل ذلك.

الراقصة : الأدب مع الأذان !

سلاما : نعم الأدب، ولكن الأصح أن نقول الأدب مع التوجيه النبوي، يمكن أن يكون له مردود كبير في جميع النواحي بمجرد الامتثال لهذه النصيحة النبوية فقط كانت البداية، وبدأت أنفذ هذا الأمر، إذا سمعت المؤذن أتوقف عن الكلام مهما كانت أهمية أو مكانة من أتحدث معه، وأكرر ما أسمعه من المؤذن حتى ينتهي، وهذ الحال جعلني أستطيع أن أقاوم شهوة الكلام وشهوة الحديث، فأصبحت أمتلك القدرة على التحكم في الوقت الذي أريد أن أتكلم فيه، وكذلك الوقت الذي أريد أن أصمت فيه، وبعد فترة ليست بالقليلة، بدأت بالتفكير في معنى هذا التوجيه النبوي، لماذا أمرنا النبي - صلى الله عليه واله وسلم- بهذا الأدب ؟

فوجدت أن النبي- صلى الله عليه واله وسلم- عندما وصف الأذان قال لنا: "قولوا بعد الأذان: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة"، فوصف الأذان بأنه دعوة تامة أي مكتملة الأركان، فهذا الأذان ما هو إلا دعوة تامة مكتملة الأركان للدين كله، إذًا فالأذان بمثابة دعوة للإسلام، ودعوة تامة كما وصفها النبي ﷺ .

فكيف تكون هذه الألفاظ التي نحفظها جميعًا دعوة تامة ونحن لا نشعر؟ فلابد إذًا من وجود معنى أعمق في هذا الأذان، فبدأت بالتفكير والبحث، فوجدت أنه بالنظر إلى الحديث الأول من صحيح مسلم، وهو ما يعرف بحديث جبريل - عليه السلام-، نجد أن النبي- صلى الله عليه واله وسلم- قد سأله سيدنا جبريل - عليه السلام- عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلامات الساعة، ولما غادر السائل، قال النبي- صلى الله عليه واله وسلم- هذا جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم.

إذًا فمكونات الدين الإسلام والإيمان والإحسان وعلامات الساعة والآذان دعوة تامة، فهو يدعو إلى هذه الأركان مجتمعة، وإلى هذه الدوائر الأربع، فكيف يكون الأذان بمفرداته المعروفة دعوة إلى هذا الدين وتكون دعوة تامة ؟

ومن ذلك الحين، ظهرت لي الأهمية العظمى للأذان، فهي ليست مجرد ألفاظ تتكرر، ونكررها وراء المؤذن، ولكن هناك عمق لابد أن أعرفه.

فهذه كانت نقطة البداية الحقيقية في تعلم الصمت والتدريب عليه، وهي الصمت عند سماع الأذان مهما كانت درجة أو أهمية الحديث الذي أتحدث فيه، ومهما بلغت قيمة من أتحدث إليه، فإذا سمعت المؤذن أصمت في الحال، ولا أفكر في الحديث مهما كلفني ذلك، وفقط أردد الفاظ الأذان، فمن أراد أن يبدأ في تعلم الصمت؛

فليبدأ من هنا، خمس مراتٍ في اليوم والليلة، يمكنك فيها التدريب الفوري على الصمت، وهذا يجعلك قادرا على التحكم في رغبة التحدث وشهوة الكلام، وإذا أردت أن تنتقل مرحلة أخرى، فعليك بترديد كلمات الأذان وراء المؤذن.

إذًا فأولًا تتعلم الصمت، ثم بعد ذلك تتعلم الاستماع، ومن ثم تردد ما سمعت، وبعد ذلك تفكر في ما ترددده، وهذا يؤدي إلى تعلم التفكير قبل الكلام، وإلى تعلم التفكير العميق قبل النطق بأي كلمة، وهذه النتائج كلها نتيجة الأدب مع كلمات الأذان التي وصفها النبي- صلى الله عليه و آله وسلم- بأنها دعوة تامة.

فبدأت أضع سياج أو إطار أفكر فيه في هذه الدعوة التامة، وهو عبارة عن بعض الجمل الاسترشادية التي يمكن أن أفكر من خلالها، **وهي**:

١- الأذان دعوة تامة تدعو إلى كامل الدين

٢- الدين يتكون من أربع دوائر وهي الإسلام، والإيمان والإحسان، و علامات الساعة

٣- وضح لنا النبي- صلى الله عليه واله وسلم - الشرح التفصيلي لكلمات الأذان عندما قال :" إذا سمعتم المؤذن، فقولوا كما يقول"

٤- عندما يقول المؤذن: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أردد الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

ولماذا أكبر وليست كبيير ؟

٥- إذا قال المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله، أردد أشهد أن لا إله.

٦- إذا قال المؤذن: أشهد أن محمدا رسول الله، أردد أشهد أن محمداً رسول الله.

٧- اذا قال المؤذن: حي على الصلاة، أردد لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا قال حي على الفلاح، أردد لا حول ولا قوة إلا بالله.

وهنا يأتي السؤال، لماذا لم نردد نفس الكلمات كما فعلنا من قبل ؟ وما هو معنى لا حول ولا قوة إلا بالله ؟

وما هو الحول ؟

٨- إذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبر، أردد الله أكبر الله أكبر.

ولماذا في بداية الأذان كانت أربعًا وهنا إثنين فقط ؟

٩- إذا قال المؤذن: لا إله إلا الله، نردد لا إله إلا الله.

بهذا التوضيح، وبهذا التفسير يتبين لنا أن هناك مغزى ومقصد من كل هذا الشرح النبوي، فلماذا كرر الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- جميع الكلمات، وعند حي على الصلاة، حي على الفلاح نقول لا حول ولا قوة إلا بالله، وفي أذان الفجر زاد: الصلاة خير من النوم ، ففي كل كلمة، وفي كل لفظ هناك أمر ما، وهناك عمق ينبغي أن نتفكر فيه، وبذلك يصبح التفكير قبل الكلام بالنسبة لك أمرًا اعتيادي، وتفعله بصورة تلقائية .

فإذا ما أردنا أن تنتقل إلى مرحلة أرقى، فما علينا إلا التفكير في قول أم المؤمنين السيدة عائشة- رضي الله عنها- عندما سئلت عن حال النبي - ﷺ- في بيته فقالت: "يكون في مهنة أهله"، يكون في مهنة أهله أي كان يفعل ما يفعله أهله يساعد معهم.

ولكنها **قالت** :" فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه"

فإذا تمثلت بهذا الأدب أيضًا عند سماع الأذان؛ فتقوم بالانعزال عن جميع الوسط المحيط بك، وكأنك غريب عنه، أو كأنه لا يعرفك ولا تعرفه، ستجد أنك قد بدأت في التدريب العملي على العزلة وآنت في وسط المجتمع، فتتعلم كيف تدخل في العزلة القلبية وأنت في وسط الناس، فتصبح ببدنك مع الناس وبقلبك في العزلة، فبمجرد التأدب مع سنة نبوية واحدة، بدأت تتفتح لك أفاق لم تكن تتخيلها أو تفكر حتى فيها، وهذا ما يمكن أن يحدث بالأدب مع أي سنةً نبوية أخرى، فإذا بدأت بإحدى السنن النبوية؛ فسوف تصل بك إلى نفس الآفاق ونفس الرحابة، ولكن من طريق آخر.

الراقصة : أولًا وقبل أي شيء، لابد أن تشرح لي ماذا كنت تقصد عندما ذكرت قول والدك - رحمه الله - :" الدين ليس صومًا ولا وصلاة"

سلاما : مع أن والدي- رحمه الله- كان حريصًا كل الحرص على صلاة جميع الصلوات المفروضة في المسجد، وعلاوة على صيامه شهر رمضان كان يصوم الثلاثة أيام البيض من كل شهر، وكان يصوم أيضًا الاثنين والخميس من كل أسبوع، وكان يصوم يوم عرفة، ويوم عاشوراء، والأيام الأول من ذي الحجة، وكان يصلي

جميع النوافل قبل وبعد الصلاة المؤكدة والغير مؤكدة، ويصلي الضحى، ويصلي قيام الليل، ومع ذلك كله كان يردد هذه الكلمات " الدين ليس صومًا وصلاة، يا أولاد! الدين المعاملة"، أي أن حقيقة الدين إنما تتمثل في الأخلاق التي تتعامل بها مع الكون.

الراقصة : ولكن ماهي اذاً فائدة الصوم والصلاة وباقي العبادات التي نفعلها ؟ فهناك أشخاص لا يؤمنون وأخلاقهم حسنة، فما هو الفرق بينه وبين المؤمن ؟

سلاما : الدين عبارة عن ثلاثة دوائر: دائرة الإسلام، ودائرة الإيمان ودائرة الإحسان، جميع العبادات تدخل في دائرة الإسلام، والعلم الذي يختص بدراسة دائرة الإسلام يسمى بعلم الفقه، والعلم الذي يختص بدراسة دائرة الإيمان يسمى علم التوحيد ، والعلم المختص بدراسة دائرة الإحسان يسمى بعلم التصوف، وهو يتعلق بالأخلاق المرتبطة بالعقيدة.

ومن هنا نبدأ الإجابة على السؤال المطروح، ما هو الفرق بين الأخلاق الحسنة عند المؤمن وغير المؤمن ؟ الفرق بسيط، وهو أن الخلق عند غير المؤمن نسبي، وأما الخلق عند المؤمن فهو مطلق، ومعنى نسبي أنه يتغير بتغير الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، فالأخلاق عند غير المؤمن متغيرة وليست ثابتة، وأما الأخلاق عند المؤمن فهي ثابتة لكل شخص وفي كل زمان وفي كل مكان ولكل الاحوال ، والأحوال هي حال الشخص من الفقر أو الغنى ومن القوة أو الضعف وهكذا.

وعندما أراد العلماء معرفة الوزن النسبي لكل دائرة من هذه الدوائر التي تمثل الدين، وجدوا أن الوزن النسبي لدائرة الإسلام هوفقط خمسة بالمائة من الدين، وأن الإيمان والإحسان تمثلان خمسًا وتسعين في المائة من الدين، وبذلك إذا عدنا الى كلام أبي؛ فسنجد انه تعبيرًا صحيحًا عن حقيقة الدين، فإن تمام الدين في الحقيقة ليس صومًا ولا صلاة، وإنما تمام الدين في الحقيقة هو في الأخلاق والمعاملة .

الراقصة : هكذا يمكن أن يهتم الشخص بالخمسة وتسعين في المائة ويترك الخمسة في المائة ولا يفعلها ؟

سلاما : يستحيل! لأن دائرة الإسلام تمثل الإناء الذي يوضع فيه الإيمان والإحسان، فإذا فقدت الإناء؛ فلا يوجد محل يوضع لك فيه الإيمان ولا الإحسان.

بدأت الراقصة في تذكر بيت أبيها في البلد، وكيف أنها لا تستطيع حتى الذهاب لرؤية أمها هناك.

الراقصة : أتعرف أني لم أذهب إلى البلد منذ عدة سنوات، بعد موت أبي؛ أصبح أخي الأكبر هو المسؤول عن البيت، وأخي ملتزم جدًا، ولا يصلي إلا في المسجد، يقول إن صلاة الرجل لا تصح إلا في المسجد، وله لحية طويلة، ويرتدي جلبابًا أبيض، ويستعمل السواك، ويشرب بيده اليمنى على ثلاث مرات وهو جالس، ويتحدث بالفصحى على قدر الإمكان، ويغض البصر، ويأكل بيده من غير ملعقة، ويحفظ القرآن ويحسن التلاوة بالأحكام، وغيرها الكثير،

ويعتبر هو شيخ المسجد في البلد؛ لأن الإمام يحضر لخطبة الجمعة فقط، فهو يقوم بمهام الإمام كاملة.

أراد أخي أن يزوجني من صديق له، وقال أنه لا داعي لأن أذهب إلى المدرسة مرةً أخرى؛ ففي نهاية المطاف البنت ليس لها إلا بيت زوجها، وافقت أمي على ذلك، وتقدم لخطبتي صديق أخي، وتم عقد القران، وبدأ يأتي لزيارتنا في البيت، ولما تعاملت معه شعرت بعدم الرغبة في الزواج من هذا الشخص، ولكن ما باليد حيلة، لم يوافق أخي ولا أمي على ذلك، وتم تحديد ميعاد الفرح بعد سنة، لأنه حدث عندهم حالة وفاة، وتعاملت مع العريس لفترة أطول، وبدأت التعرف على طباعه وشخصيته الحقيقية، وكلما تقربت منه كلما ازداد رفضي له، حتى تم الزواج في نهاية المطاف، وفي يوم الدخلة حدثت الصدمة التي غيرت مجرى حياتي، لم يجد العريس الدم الذي كان ينتظره دليلًا على البكارة، ومن وقتها وتغير الحال رأسًا على عقب، وأخبر أخي بما حدث، وتم التعامل معي على هذا الأساس، وتطورت الأمور إلى أن وصلت إلى الملهى الذي أعمل فيه الآن.

ولكن مع ذلك أقوم شهريًا بإرسال مبلغ من المال إلى أمي؛ حتى لا تحتاج لأحد في مصاريف البيت.

والمفارقة أن أخي يعلم بذلك ولا يرفضه، ويقول أن هذا المال حلال بالنسبة له؛ لأنه يستفيد منه عن طريق الأم ولا يأخذه مني مباشرةً، ولكنه حرام بالنسبة لي؛ لأنني قد اكتسبه من حرام، وأيضًا يقول أن الله قد سخرني له ليستخدم هذا المال للدعوة في سبيل الله ،

وحتى الآن لا أستطيع الذهاب لرؤية أمي، ويبقى الحال على ما هو عليه، أكتسب المال من الحرام وأرسله لأخي لينفقه على الدعوة في سبيل الله.

وفي أحد الأيام، وأنا في العمل، نظرت إلى من في الملهى، وبدأت في عقلي مقارنةً غريبة، فنحن أخ وأخت قد نشأنا في أسرة واحدة وفي مجتمع واحد، ولكن في نهاية المطاف الأخ إلى المسجد والأخت إلى الملهى، ولكن المفاجأة الأغرب بين مسجد الأخ وملهى الأخت أن زبون مسجد الأخ ظاهره أفضل من باطنه، وأن زبون ملهى الأخت باطنه أفضل من ظاهره، فكل منهما يظهر خلاف ما يبطن.

سلاما : مقياس العفة، "نظرية المقياس" مرةً أخرى، هل دم البكارة يعتد به مقياسًا للعفة؟ من الناحية الشرعية قطعًا لا، ومع ذلك يعتد به مقياسًا في العرف المجتمعي.

الراقصة : ماذا قلت! من الناحية الشرعية قطعًا لا! معنى ذلك أنهم ليس لهم أي حق في كل ما فعلوه معي؟

سلاما : بكل تأكيد.

الراقصة : بهذه البساطة! لا يمكن أبدًا تصديق ذلك! اذاً لماذا؟ لماذا كل هذه المعاناة وكل هذا الألم الذي تعرضت له؟ فقد وصل بي الحال إلى...فمن داخلي كان هناك صوتًا ما يلتمس لهم الأعذار فيما

فعلوا؛ لأنهم لم يجدوا دماء البكارة، وأقول في نفسي إنهم معذورين فيما فعلوا، لأنهم أعلم بالدين وكنت في بعض الأوقات...

وسكتت الراقصة ولم تكمل، فنظر إليها سلاما، فإذا هي منهمرة في البكاء ولا تستطيع الكلام، واستمرت في البكاء مدة طويلة وكأنها تغسل شيئًا ما بداخلها، ولكن يبدو أنها بدأت تستمتع بالبكاء والدموع، وكأنها كانت تنتظر هذه اللحظة من زمن بعيد، وبدأت تتمتم بكلمات لا يستطيع أن يسمعها، وبعد مدة تحول البكاء والدموع إلى ما يشبه دموع الفرح، وتبدلت ملامح وتعابير وجهها، وبدا وكأن وجهها قد استنار من شدة الفرح، واستمر الحال على ذلك المنوال، إلى أن بدأت بالكلام مرةً أخرى.

الراقصة : في الحقيقة كنت بيني وبين نفسي القي....

صمتت مرةً أخرى، ولكن هذه المرة كان الصمت مع سيلان الدموع من عينيها بصورة تلقائية، كأنما يتدفق من نبع ماء بسهولة انسيابية، ثم عاودت الكلام .

الراقصة : كنت ألقي باللوم على ربنا، وأقول في نفسي لماذا كل هذه المعاناة وكل هذا الألم ماذا فعلت؟

ومع ذلك لا أجرؤ على البوح بذلك حتى لنفسي، وربما كانت تصرفاتي كلها ترجمة لهذه المشاعر، فأريد الاعتراض على هذا الدين الذي يمثله هؤلاء، فأبحث عن كل مرفوض دينيًا وأحاول فعله، وأيضًا أحاول إظهار هذه المحظورات الدينية والافتخار بفعلها

أمام المجتمع، وكلما كانت المخالفة أكثر رفضًا من المجتمع؛ كلما كان ذلك إشباعًا لحالتي النفسية، ومع كل هذه المشاعر كان يسري بداخلي نور يتوهج على فترات، وأتذكر كلمات أبي التي كان يرددها دائمًا على مسامعي : يا بنتي، " ربك رب قلوب "، ولعلمك يظن كثير من الناس أنني في منتهى السعادة، مال وجمال وسهر وشرب ورجال وكل شئ أرغب فيه لا أستحي من فعله.

ولكن سأعطيك مثالًا ماديًا واحدًا فقط حتى تحكم بنفسك، وهذا المثال لن يخبرك به إلا من تمرس في هذه المهنة سنوات طويلة، كثير من الناس يعتقد أن من تمارس هذه المهنة في متعة دائمة لا تنقطع؛ لأنها ببساطة شديدة تمارس هذا الفعل مع من تريد وقتما تريد، دون أي قيود ودون خوف من أحد، ولكني سأحكي لك شيئًا لن تسمعه من غيري، نفترض أن لاعبًا يلعب مباراة لكرة القدم وفي أثناء المباراة حدث له شد عضلي فوقع على الأرض حتى يتم تقديم الإسعافات له وعلاج هذا التشنج العضلي، فتخيل معي لو طلب من هذا اللاعب المصاب معاودة اللعب وهو مازال مصابًا، وليس ذلك وحسب بل عليه أيضًا أن يحرز أهدافًا، وعلاوة على ذلك لابد من أن يمتع الجمهور ولا يشعرهم بأنه مصاب، هذا هو تمامًا ما تشعر به أغلب من تمارس هذه المهنة، وللمفارقة أنه عندما تصبح هذه التشنجات حالة مزمنة، وتسأل كل من تمارس هذه المهنة عن هذا الأمر، لماذا لم يتحدث أحد عن ذلك من قبل؟ تأتي الإجابة النموذجية

:لأن هذه الحالة شيئًا طبيعيًا ومعتادًا، تشعر به معظم من تمارس هذه المهنة، فهو أمر لا يحتاج إلى أن نتحدث فيه.

سلاما : سمعت من أحد الصالحين أن من يقوم بهذا الفعل خارج النطاق الشرعي ينزع الله منه المتعة تماما، كأن إنسانًا نزعت منه حاسة التذوق، فهو يأكل لأنه جوعان، ولكنه لا يشعر بمذاق الطعام الذي يأكله، ولكن لم أكن أستوعب الحالة بهذه الصورة.

الراقصة : ولن يخبرك أحد بهذا الكلام مطلقًا؛ لأنه يعتبر سر من أسرار المهنة.

عادت الراقصة إلى تذكر ما فعله زوجها وأخوها بسبب عدم وجود دم البكارة.

الراقصة : ولكن لماذا كل هذه المعاناة وكل هذا الألم من غير أي جناية أو مخالفة مني ؟

سلاما : من هو الصحابي الذي نتذكر قصته دائمًا عند الحديث عن تعذيب المشركين للمسلمين أيام الجاهلية ؟

الراقصة : سيدنا بلال بن رباح مؤذن الرسول -صلى الله عليه وسلم-

سلاما : فما هي الجناية التي ارتكبها سيدنا بلال حتى يستحق كل هذه المعاناة وكل هذا الألم ؟

الراقصة : لأنه ترك عبادة الأصنام و اعتنق الدين الجديد.

سلاما : كل الصحابة فعلوا ذلك الأمر، فلماذا يتحمل هو على وجه الخصوص كل هذه المعاناة وكل هذا الألم ؟

الراقصة : لا أدري.

سلاما : لماذا لم يطلب سيدنا بلال من الرسول - ﷺ- أن يدعو له حتى يتخلص من كل هذه المعاناة وكل هذا الألم ؟

الراقصة : لا أدري.

سلاما : سيدنا بلال كان عبد، وعاش حياة العبودية القاسية التي لا يمكن لنا أن نتخيل مدى بشاعتها، يكفي أن نعرف أن العبد كان لا يعامل باعتباره إنسان من بني البشر، وإنما يعامل معاملة الحيوان الناطق، فهو بالنسبة لهم حيوان لكنه يمتلك بعض الخصائص التي تميزه عن أقرانه من الحيوانات الأخرى، فليس له أي حقوق تذكر، وليس له إرادة، وليس له ملكية، ولذلك فهذه البيئة التي ينشأ فيها العبد تجعل كامل التعلق النفسي والقلبي والعقلي والبدني للعبد متوجهًا لسيده فقط دون سواه، لأن هذا السيد بيده حياته وموته وفرحه وحزنه وغناه وفقره،

فهو بالنسبة له بمثابة الرب للعبد، ولذلك عندما أعتنق سيدنا بلال الدين الإسلامي؛ دخل إلى دائرة الإسلام ولم يدخل بعد إلى دائرة الإيمان، فالإسلام أعمال جوارح والإيمان أحوال قلوب، فكانت هذه المعاناة وهذا الألم هي المعين له للدخول إلى دائرة

الإيمان والإحسان، ولفهم سيدنا بلال لهذه الرسالة؛ لم يطلب الخلاص من البشر،إنما كان يردد كلمة واحدة فقط وهي: "أحد أحد" ، مما يدل على فهم معمق للحال القلبي والرسالة في آن واحد، فلما كانت المعاناة والألم سببًا في تحرير قلبه من التعلق بربه الذي يموت وهو السيد، وأصبح لا يتعلق إلا برب أحد لا يموت، كان أبوبكر الصديق - رضي الله عنه- سببًا في تحرير بدنه من ربه الذي يموت، حتى لا يكون جسده وقلبه إلا لرب أحد لا يموت.

"فلما حرر بلال قلبه حرر الصديق بدنه"، ولذلك فكل ما علينا هو فهم الرسالة فهمًا صحيحًا، والتعامل معها بصورة صحيحة.

"فحرر أنت بلال قلبك يحرر لك الصديق بدنك"، فإذا مات في قلبك التعلق بأرباب تموت، تجلى فيه ربك الذي لا يموت، لذلك فشدة المعاناة والألم التي تتعرض لها تتناسب مع قوة ارتباط قلبك وتعلقه بالأرباب التي تموت وعدد هذه الأرباب، فكلما كان عدد الأرباب أقل؛ كانت المعاناة أقل، وكلما كان التعلق بالأسباب أكبر؛ كان الألم أكبر، فما علينا إلا فهم الرسائل التي تصل إلينا وحسن التعامل معها؛ حتى تكون سببًا في تحرير القلوب.

الراقصة : كان لأخي بعض الجمل يكررها في كل نقاش بيننا تقريبًا ، وكانت هذه الكلمات لها تأثيرًا سيئًا جدًا على حالتي النفسية ،

"النساء ناقصات عقل ودين" ، "المرأة خلقت من ضلع أعوج" ، "كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربعة".

سلاما : لم تكن هذه الكلمات تسبب أي مشكلة للنساء في العصور السابقة ، ولكن مع شيوع الثقافة الصحراوية بدأنا في رؤية هذا الفهم الخاطئ؛

أولًا : الإنسان في اللغة يطلق على الذكر والأنثى ، فنقول هذا إنسان ذكر، وهذه إنسان أنثى، فلا توجد كلمة إنسانة في اللغة.

ثانيًا : "المرأة خلقت من ضلع أعوج"

أمسك سلاما السنارة ووضع الخطاف في يده.

سلاما : هل هذا الإعوجاج في الخطاف كمال فيه أو نقص؟

الراقصة : بالتأكيد كمال، لأنه لن يؤدي مهمته إلا به ولن تستطيع الصيد من غير هذا الإعوجاج.

سلاما : فهذا هو تمامًا المقصود بالإعوجاج في الضلع، لأن الضلع لن يؤدي مهمته إلا به، فلو كان الضلع غير معوج لما إستطاع أن يحمي ما بداخله .

ثالثًا : "كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا اربعة"

ما هو الفرق بين "لم" و "لن" ؟

لم تدخل على الفعل المضارع لتنفي حدوثه في الماضي، ولن تدخل على الفعل المضارع لتنفي حدوثه في المستقبل ، فالكلام عبارة عن إخبار بما حدث في الماضي على أرض الواقع.

رابعًا : "النساء ناقصات عقل ودين"

يوجد نوعين من التفكير، التفكير المنطقي والتفكير العاطفي، وكل من الرجل والمرأة يمتلك كلا النوعين، ولكن الإختلاف في النسبة.

فنجد أن الزيادة عند الرجل في نسبة العقلانية والنقص في نسبة العاطفية، والعكس بالنسبة للمرأة فإن الزيادة في نسبة العاطفية والنقص في نسبة العقلانية، ولذلك فإذا إعتبرنا النقص في العقلانية عند المرأة عيبًا، فالبتالي لابد من إعتبار النقص في العاطفية عند الرجل عيبًا، وهذا قياس فاسد، لأن الصفة في كل منهما مناسبة للدور المنوط به، فكل طرف مكمل للآخر، فلا يوجد تضارب ولا تنافس ولا مساواة، ولكن يوجد تساوي في الحقوق والواجبات لكل طرف وفقًا للمراكز القانونية لكل منهما .

الراقصة : سوف أذهب غدًا لزيارة أمي في البلد، ولن أترك بيت أبي مرةً أخرى، شاء من شاء وأبى من أبى!

غادرت الراقصة شجرة الجميز وهي عازمة على المواجهة مع كل شيء، حتى مع نفسها.

وهكذا نكون قد انتهينا من أحداث اليوم العاشر من أيام سلاما تحت شجرة الجميز.

****

اليوم الحادي عشر

كشك عم عوض

يجلس سلاما بجانب عم عوض، ولكن عم عوض تبدوا عليه علامات الضيق.

سلاما : ماذا يجرى يا عم عوض ؟ الدنيا هكذا، يوم ويوم.

عم عوض : المشكلة أن الموضوع يتعلق بمستقبل البلد.

سلاما : مستقبل البلد مرةً واحدة!

عم عوض : نعم الأمر خطير، ولكن لا يوجد حلول.

سلاما : في معظم الأحوال لا تكون المشكلة في إيجاد الحل؛ ولكن في كيفية تطبيق هذا الحل على أرض الواقع، لأن أغلب المشكلات تجد أن لها حلولًا مدونة في الكتب، ولكن المعضلة في تنفيذ ما هو مكتوب على الواقع المعيشي.

عم عوض : هذه المرة ليس لها حل لا نظريًا ولا حتى عمليًا.

سلاما : إذا كان الأمر بهذه الدرجة من التعقيد فلا ترهق نفسك في التفكير حتى لا تصل لهذه الحالة النفسية، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك شأن العامة.

وهل طفت هذه المشكلة إلى السطح فجأة وبدون مقدمات ؟ وما هي هذه المشكلة المعقدة كل هذا التعقيد ؟

عم عوض : مشكلة الدروس الخصوصية.

سلاما : هذه من المشاكل التي تتوارثها الأجيال يا عم عوض، فلماذا تذكرتها الآن؟

عم عوض : تم إفتتاح مركز للدروس الخصوصية بالقرب من هنا، فيمر الأولاد من أمام الكشك بشكل يومي، وأرى مدى المعاناة التي يعانيها الأولاد، وأيضًا معاناة الأهالي من جراء هذا الأمر.

سلاما : ومن يوجد لك الحل، ماذا تفعل له ؟

عم عوض : بهذه البساطة الحل.

سلاما : نعم الحل، وقابل للتطبيق أيضًا!

عم عوض : شبعنا من المؤتمرات والمناظرات والندوات، نريد حلول عملية وإجراءات تنفيذية، إذا كنت محقًا، سنفترض أنك وزير التربية، وتريد إصدار قرارات تنفيذية، ماذا ستفعل ؟

سلاما : قرارات طلبك مجاب، إعرض المشكلة وستجد الإجابة ؟ ولكن أولًا أحضر ورقة وقلمًا للتدوين.

عم عوض : لحظة واحدة فقط، تفضل يا سيدي.

أحضر عم عوض قلمًا ومذكرة، وتهيأ وأنصت تمامًا ليكتب الحل المزعوم لمشكلة نتوارثها جيلًا بعد جيل.

سلاما : المشكلة الأولى ؟

عم عوض : عدم توفر العدد الكافي من المدارس؛ مما يؤدي إلى زيادة كثافة الفصول الدراسية.

سلاما : قرار رقم :

١- يكون التعليم في المرحلة الثانوية عن طريق التعليم عن بعد

٢- تخصيص المدارس الخاصة بالمرحلة الثانوية للمرحلة الإعدادية

٣- ضم المدارس التي تخص المرحلة الإعدادية للمرحلة الإبتدائية

عم عوض : بهذه البساطة!

سلاما : المشكلة الثانية؟

عم عوض : الدروس الخصوصية.

سلاما : قرار رقم :

١- معاملة المدرسين العاملين في وزارة التربية والتعليم معاملة الأطباء العاملين في وزارة الصحة من حيث السماح لهم بإنشاء مراكز تقوم بتقديم الخدمات التعليمية.

٢- إصدار تصاريح مزاولة المهنة التعليمية لكل من تنطبق عليه الشروط من خارج الوزارة.

٣- إصدار اللوائح التنفيذية لعمل هذه المراكز التعليمية، وكيفية الرقابة والإشراف عليها من قبل الوزارة.

سلاما : المشكلة الثالثة؟

عم عوض : ضعف الميزانية الخاصة بالوزارة.

سلاما : قرار رقم:

١- التوقف عن طباعة الكتاب المدرسي، ويتم إتاحته من خلال موقع الوزارة.

٢- تحصيل رسوم مالية في مقابل إصدار تصاريح مزاولة المهنة.

٣- تحصيل رسوم مالية في مقابل الرقابة والإشراف على المراكز الخاصة بتقديم الخدمات التعليمية.

٤- تحصيل رسوم مالية تصاعدية في مقابل السماح للطالب بتعدد فرص دخول الامتحان للمادة الواحدة بعد الفرصة الأولى.

٥- تحصيل رسوم مالية مقابل تجديد تصاريح مزاولة المهنة التعليمية كل عام.

سلاما : المشكلة الرابعة ؟

عم عوض : هذا كله في الشق الخاص بالتعليم، ولكنها وزارة التربية أيضًا، كيف نتعامل مع ضعف الدور التربوي للوزارة ؟

سلاما : قرار رقم :

١- إعادة توزيع ميزانية وزارة التربية والتعليم بحيث تكون **كالآتي**:

- ٥٠٪ من الميزانية يخصص للخدمات التربوية.
- ٥٠٪ من الميزانية يخصص للخدمات التعليمية، على أن توزع **كالتالي**:
  - ٢٥٪ لتقديم الخدمات التعليمية.
  - ٢٥٪ للرقابة والإشراف على مقدمي الخدمات التعليمية.
- المنظومة التربوية تعتمد على تقسيم التنشئة التربوية على ثلاثة **مستويات**:
  - **المستوى الأول**... من سن الإلتحاق بالمدارس إلى عمر سبع سنوات تكون التربية عن طريق اللعب
  - **المستوى الثاني**... من عمر ثمانية سنوات إلى أربعة عشر عاما نكون التربية عن طريق الإرشاد والتوجيه
  - **المستوى الثالث**... من عمر خمسة عشر عاما إلى عمر واحد وعشرين عاما تكون التربية عن طريق المصاحبة، أي الكشافة والجوالة وما يشبهها من فعاليات.

عم عوض : ولا أحسن خبير في التعليم، ولكن كيف تمكنت من وضع كل هذه الحلول بهذه السهولة وبطريقة تدل على دراسة مستفيضة لهذه المشكلات ووضع تصور كامل لها.

سلاما : في الحقيقة من وضع هذه الحلول وقام بتنفيذها على أرض الواقع هو المجتمع، وكل ما فعلته هو مجرد قراءة لهذه الحلول الموجودة فعلًا على أرض الواقع، فقد قام المجتمع بوضع الحلول العملية لمشكلة التعليم وقام بتطبيقها أيضًا، ولكن الوزارة لا تريد الإعتراف بتلك الحلول ولا حتى التعامل معها بصورة إيجابية والعمل على وضع الإطار القانوني لها؛ حتى لا يتوغل طرف على طرف آخر.

عم عوض : مجرد امتلاك هذه القدرة على قراءة الواقع وإمكانية ربط المعلومات بهذه الصورة، فهذا ليس بالأمر الهين أبدًا.

سلاما : إذا كنت مقتنعًا بها لهذا الحد، يمكن أن ترسلها إلى الوزارة، ولكن أنصحك بفعل ذلك عن طريق أحد أساتذة الجامعات، حتى يتم النظر في محتواها وعدم إلقائها في سلة القمامة.

عم عوض : لا! أكيد هذه ساعة تجلي، ولذلك سوف أقوم باستغلال هذه الفرصة بطرح بعض الأسئلة.

سلاما : فرصة؟ واستغلال وبعض الأسئلة؟ هذا ليس عم عوض أبدًا! هناك أمر جلل يبدو في الآفاق.

عم عوض : وليكن، ولكن سأطرح السؤال واحدًا تلو الآخر، وأريد الإجابة في جملة واحدة فقط.

سلاما : جملة واحدة فقط ! وهل يوجد عدد محدد من الكلمات لابد من الالتزام به أيضًا؟

عم عوض : لا، المهم جملة واحدة فقط.

- س١ : كيفية تربية الأولاد بطريقة لا تؤثر عليهم بصورة سلبية، مع وجود مبدأ الثواب والعقاب ؟

سلاما : جملة واحدة

- ج١ : إستعمال حرف الجر "على" بدلًا من حرف الجر " من".

عم عوض : لم أفهم شيئًا.

سلاما : لقد قلت جملة واحدة فقط لكل سؤال، وقد التزمت بذلك.

عم عوض : ولا مشكلة أبدًا،

- س٢ : إشرح الجملة السابقة ؟

إبتسم سلاما وتعجب من سرعة البديهة التي يتمتع بها عم عوض.

سلاما : لن أستطيع المبارزة معك مطلقًا، ولكن سوف أعيد الجملة السابقة مرة أخرى دون أن تحتسب لأنها إعادة.

عم عوض : مسموح لا بأس .

سلاما :

- ج٢ : وضع "على " بدلًا من "من" في هذه الجملة "،اجعل الولد يخاف على زعلك ولا تجعله يخاف من زعلك " توضيح كل مولود ولد".

عم عوض : فعلًا جملة قوية، ولكن من أين لك كل هذه الحكمة ؟ مع أنه لا ينطبق عليك أبدًا القول الشائع خذوا الحكمة من أفواه المجانين.

سلاما : الصحيح أنها خذوا الحكمة من أفواه المجاذيب، ولكن نتيجة الخلط بين المجذوب والمجنون حدث هذا اللبس.

عم عوض :

- س٣: كيف نجمع بين الرفق والصرامة في التربية ؟

سلاما :

- ج٣ : التربية بالحزم وليس بالشدة.

عم عوض :

- س٤ : كيفية التعامل مع الأولاد في سن المراهقة؟

سلاما :

- ج٤ : الحرص على إشباعهم من الحنان كما نحرص على إشباعهم من الطعام.

عم عوض :

- س٥ : كيفية تربية الأولاد على التمسك بالأخلاق الحميدة؟

سلاما :

- ج٥ : تنتقل الأخلاق من الأهل إلى الأولاد بالحال وليس بالمقال.

عم عوض :

- س٦ : كيفية تربية الأولاد على حب الأخ لأخيه ؟

سلاما :

- ج٦ : بحب كلًا من الأب والأم لأهله.

عم عوض :

- س٧ : قاعدة شاملة للتعامل مع الأولاد ؟

سلاما :

- ج٧ الصدق سيف الله في أرضه ما وقع على شئ إلا قطعه.

عم عوض :

- س٨ : كيفية السيطرة على مشاعر الغضب عند الأب والأم من عدم امتثال الأولاد لما يقولون ؟

سلاما :

- ج٨ : بمعرفة أنهم لا يمتلكون الأولاد، وإنما يقومون على رعايتهم فقط.

عم عوض :

- س٩ : نصيحة تربوية شاملة ؟

سلاما :

- ج٩ : تسعة أعشار التربية في التغافل.

عم عوض :

- س١٠ : كيف نعترض على الأخطاء مع عدم إهتزاز الثقة بالنفس عند الأولاد ؟

سلاما :

- ج١٠ : بانتقاد الفعل وليس الفاعل.

عم عوض : كافي جدًا، لم يتبق إذًا إلا تبنى هذه الحلول والعمل على نشرها في المجتمع .

وعند هذا الحد إكتفى عم عوض بما كتب، وأخذ في مراجعته بهمة ونشاط، وغادر سلاما وشاكو كشك عم عوض إلى شجرة الجميز مرةً أخرى.

وبذلك نكون أنهينا اليوم الحادي عشر من أيام سلاما عند شجرة الجميز.

****

اليوم الثانى عشر

محل عم ميلاد المكوجي

عم ميلاد رجل يمتلك محلًا لكي الملابس في نفس الحي بجوار شجرة الجميز، وسلاما يذهب للجلوس معه من آن لآخر، وفي يوم من الأيام مر سلاما من أمام محل عم ميلاد، فوجده مغلقًا على غير العادة؛ فهو ليس له يوم للراحة، ويفتح أربع وعشرون ساعة يوميًا طوال أيام الأسبوع.

سأل سلاما عن سبب غياب عم ميلاد، فعلم أنه مريض، ولم يجد أحدًا يقوم بفتح المحل، يعلم سلاما من عم ميلاد أن غلق محل المكوجي ولو ليوم واحد يمكن أن يؤدي إلى فقدان كثير من المترددين عليه، ولذلك قرر سلاما أن يعيد فتح المحل ويدير العمل كما كان.

وقد تعلم سلاما أسس الصنعة من كثرة مشاهدة عم ميلاد وهو يعمل عندما كان يجلس معه.

وافق عم ميلاد على هذا المقترح، وبدأ سلاما في العمل في محل المكوجي، وبعد مرور عدة أيام لاحظ سلاما مدى أهمية كي الملابس بالنسبة لمعظم الناس، وكيف يمكن أن يصل الأمر بهم إلى عدم الذهاب الى العمل نتيجةً لتأخير استلام الملابس عن موعدها المحدد، وذلك لعدم إمكانية الذهاب الى العمل بملابس غير مكوية.

فما هي الأهمية الفعلية لكي الملابس حتى يكون لها كل هذا التأثير على سلوك الفرد؟ وبدأت الأسئلة تتوال.

سلاما : في أي الدوائر الاستهلاكية يمكن أن نصنف كي الملابس؟

هل يعتبر من الضروريات أو الحاجيات أو التحسينات؟

لا نستطيع أن نلحقه بالضروريات ولا حتى الحاجات؛ لأن الضروريات هي التي إذا لم يفعلها الإنسان قد تؤدي الى هلاكه، ولا ينطبق ذلك على كي الملابس، ولا يمكن أيضًا أن نصنفها على أنها من الحاجات؛ لأن الحاجيات هي التي إذا لم يفعلها الإنسان قد تؤثر على مدى قدرته على القيام بمتطلباته اليومية، وهذا أيضًا لا ينطبق على عملية كي الملابس، فلم يتبق إلا التحسينات التي يمكن أن نصنف كي الملابس من خلالها.

ولكن السؤال هو : لماذا تم التعامل مع التحسينات على أنها من الضروريات أو الحاجيات؟

لابد إذًا من الرجوع الى ثقافة الاستهلاك لدى هذا المجتمع الذي قام بتحويل التحسينات الى حاجات، فإذا نظرنا الى النمط الاستهلاكي عند الأفراد؛ فسنجد أن هذا السلوك يصنف ضمن الاستهلاك المكاني أو التفاخري، وهو نمط استهلاكي يقوم به الفرد للحصول على مكانة اجتماعية يحاول أن يتعامل من خلالها مع المجتمع.

والسؤال الآن : لماذا أصبح هذا النمط التفاخري له هذه القيمة المجتمعية التي لا تتناسب مع حقيقته الفعلية ؟

والإجابة : بسبب النظرة المجتمعية التي تحكم على الفرد على أساس المظهر، وليس الجوهر.

وهل الحكم على الأشخاص من خلال المظاهر يعتبر ظاهرة صحية أو ظاهرة مرضية ؟

بالطبع لا، يمكن أن يكون الحكم بالمظهر ظاهرة صحية، لأنه يؤدي إلى الاهتمام بالمظهر الخارجي والتغافل عن المضمون الحقيقي للفرد؛ مما يؤدي إلى اختلالات في الهوية.

فلماذا يعتد المجتمع بهذا المقياس الغير صحي في تقييم الأفراد ؟

الإجابة: نتيجةً لشيوع وتوغل الثقافة العلمانية المادية.

وكيف يمكن تصحيح هذا السلوك ؟

تصحيح المقياس الذي نقيس به "نظرية المقياس"، ويكون ذلك بإختيار المقياس المتوافق مع النموذج المعرفي للمجتمع.

وعلى ماذا يعتمد النموذج المعرفي للمجتمع الإسلامي؟

على المحور الذي تبنى عليه هذه الحضارة.

وما هو المحور الذي بني عليه المجتمع المسلم حضارته ؟

القرآن الكريم، والشرح المعصوم للقرآن وهو السنة النبوية.

وما هو المقياس الذي وضعه القرآن والسنة لتقييم الفرد ؟

قال تعالى: *<u>**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**</u>* وقال -صلى الله عليه وسلم- : *لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى *

وما معنى التقوى ؟

عندما سئل الإمام علي- كرم الله وجهه- عن التقوى قال: "التقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل" ولم يذكر فيها كي الملابس.

هل لأنها تدخل في مفهوم العمل بالتنزيل ؟ أو أنها من المعلوم من الدين بالضرورة فلا تحتاج الى الإشارة إليها ؟

أو أنه يجب علينا العودة إلى "نظرية المقياس" وتفعيلها؟

كل هذه التساؤلات كانت تدور في عقل سلاما وهو مازال يقوم بكي الملابس وتسليمها إلى أصحابها، وفجأة، أراد سلاما طرح سؤالًا على أحد الزبائن.

سلاما : لماذا تحرص على كي الملابس كل هذا الحرص ؟

الزبون مباشرةً وبلا أي تردد: * ان الله جميل يحب الجمال *

أخذ الزبون الملابس الخاصة به وغادر المحل، ولكن ظل سلاما يفكر في الموضوع وهو يقوم بعملية الكي .

سلاما : إذًا المقصد هو الجمال، فما هو المقياس الذي يمكن أن نحتكم إليه في معرفة الجمال الحقيقي من الجمال المتوهم ؟

عند سؤال الشيخ الشعراوي- رحمه الله - عن مقياس الجمال قال:" شرط الجمال أن يظل جميلًا ولا يؤدي إلى قبح فإذا أدى هذا الجمال المزعوم إلى قبح فهذا يدل على أنه لم يكن جميلًا من البداية وأن الحكم عليه بالجمال كان خاطئًا" فهل تؤدي عملية كي الملابس إلى قبح ؟

إذا قمنا بحساب مقدار الطاقة الكهربائية التي نحتاجها في كي قطعة واحدة من الملابس في كل مرة نخرج فيها ونكرر ذلك على عدد مرات الخروج وعلى عدد قطع الملابس التي نرتديها في كل مرة ولكل الأفراد في المجتمع؛ فسنجد أننا نستخدم كمية هائلة من الطاقة الكهربائية، وهذه الطاقة نحصل عليها من عملية حرق البنزين أو الغاز أو السولار أو أي مصدر آخر، وبذلك فإننا نهدر كميات كبيرة من الطاقة بلا أي منافع للمجتمع، وعلاوة على ذلك نساهم بقدر كبير في تفاقم مشكلة التلوث البيئي، وأيضًا تقوم عملية كي الملابس بما يمكن أن يطلق عليه تعليب أو تغليف الإنسان،

فنحن نجد أن الهدف الأكثر أهمية في عملية تغليف السلعة هو الدعاية والتسويق، وتعمل عملية التعليب على تنميط السلعة، بحيث تصبح كل سلعة نسخة طبق الأصل من الأخرى، مع أننا في الواقع نفضل السلعة التي تكون أقرب الى كونها طبيعية، ونتفاخر بأن هذه السلعة اعمال يدوية وليست من خط إنتاج، وهذا يشير الى انها لا تشبه سلعة اخرى، وتجد أنه كلما كان العمل الفني كالنحت او الرسم اقرب الى الطبيعة؛ كان ذلك من علامات النجاح والتميز في العمل الفني،فهل يعد المظهر التعليبي للملابس أكثر جمالًا من ترك الملابس على حالتها بعد الغسل وما فيه من تنوع واختلاف بين مظهر وشكل كل قطعة عن الأخرى نتيجةً لاختلاف طريقة الغسيل والتنشيف والجلوس والنوم والعمل وغيرها من السلوكيات اليومية لكل فرد؟

وبعد كل هذه التساؤلات كان قد حان وقت الراحة والطعام، وكان لابد من العودة الى شجرة الجميز حتى يحين موعد فتح المحل مرةً أخرى بعد الاستراحة.

وبذلك نكون قد أنهينا اليوم الثاني عشر من أيام سلاما.

****

اليوم الثالث عشر

محل عم ميلاد المكوجي

بعد عدة أيام من عمل سلاما في محل المكوجي، وفي صباح هذا اليوم، حضر عم ميلاد إلى المحل بعد تمام الشفاء، وشكر سلاما على ما قام به من مساعدة.

ولاحظ عم ميلاد أن سلاما لم يفتح التلفاز، وأنه يعمل بدون أي ملل.

عم ميلاد : كيف استطعت الاستمرار كل هذا الوقت بدون تشغيل التلفزيون ولم تشعر بالملل؟

سلاما : لم أشعر بالوقت، كنت أفكر في فلسفة المهنة.

عم ميلاد : فلسفة المهنة! مهنتي مهمة لهذه الدرجة حتى يكون لها فلسفة.

قام عم ميلاد بتشغيل التليفزيون؛ لأنه قد اعتاد على ذلك أثناء العمل حتى لا يشعر بالملل.

وكانت تذاع نشرة الأخبار، وكان الخبر الأول كما هو معتاد في أكثر الأحيان عن فلسطين وما يحدث في القدس.

عم ميلاد : ثاني مرة!

سلاما : لا أفهم! ماذا تعني ثاني مرة؟

عم ميلاد : بدأت الحالة الأمنية في القدس في عدم الاستقرار.

سلاما : هذه ليست ثاني مرة، إذًا لنقل ألف مرة معقولة.

عم ميلاد : أنا أقصد ثاني مرة أقدم لرحلة التقديس ولا استطيع الذهاب، نظرًا لعدم توفر الأمان.

سلاما : فهمت، تريد الذهاب للقدس.

عم ميلاد : كله ميعاد، ولكن إلى متى ستظل القدس على هذا الحال؟

سلاما : القدس على مدار الزمن ما هي إلا مؤشر ومقياس الأقوى، فإذا أردنا معرفة الحضارة المسيطرة والأقوى ننظر إلى القدس، فنجد أن من يسيطر عليها هي الحضارة الأقوى، فمن يريد السيطرة على القدس عليه أن يكون الأقوى، وإلا لن تجدي أي محاولات أخرى مهما كانت.

عم ميلاد : هكذا لن تعود القدس إلا بعد أن نرحل من الدنيا!

سلاما : ومن يدري؟ ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال، ولذلك فكل فرد فينا مقصر وعليه واجب يقوم به حتى تعود القدس؛ لأنها لن تعود إلا بنهضة الأمة.

عم ميلاد : وما هو واجبي وأنا ليس لي من الأمر شيء؟

سلاما : إنما الأمم الأخلاق ما بقيت؛ فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا فواجب الوقت بالنسبة لكل فرد في المجتمع هو التخلق بالأخلاق الحسنة.

عم ميلاد : فقط! بسيطة جدًا، وهذا أيضًا ما يأمرنا به الدين.

سلاما : كان لي بعض الأبيات تتحدث عن القدس، ولكن لم أدونها.

عم ميلاد : قصيدة شعرية! أنا متذوق جيد للشعر، لحظة واحدة أحضر ورقة وقلم واكتب ما تقول.

سلاما :

يَا سَاكِنَ الْجُبِّ

يَا سَاكِنَ الْجُبِّ مِنْ مَهْدِيِّ إِلَى لَحْدِيِّ
أُهْدِي إِلَيْكَ عَبِيرُ الكونِ خَفَّاقَا
هَذِي الْعُيُونِ الَّتِي زَانَتْ بِحُبِّكُمُ
أَضْحَى قَذَاهَا لِكُلُّ الكونِ تِرْيَاقَا
إِنَّ المتقين أَجَلُّوا حَقَائِبَهُمْ
مِنَ التُّرَابِ وَكَانَ الْمَوْتُ مُشْتَاقَا
شَوْقًا حَمِيمًا لِمَنْ تَهْفُو سَرَائِرُهُمْ
إِلَى الْجِنَانِ وَرَبُّ الْعَرْشِ مغداق
سَلَّ الْعِرْبَاءِ أَطْيَافًا مُبَعْثَرَةً

أَيْنَ الْحَمِيَّةِ أَجِنَاسًا و أَعْرَاقًا

أَيْنَ الشَّجَاعَةِ يَا أَحْفَادِ مَنْ سَبَقُوا

إِلَى الْإِيمَانِ وَهُمْ لِلْمَوْتُ عَشَّاقًا

دَمُ الشَّهَادَةِ يَسْرِى فِى عُرُوقِهِمْ

لِنُصْرِ دِينَ أَوْ لِتَمَامُ أَخْلَاقًا

لَنْ يَأْتِى عِزٌّ إِلَّا فِى ثِيَابِهِمْ

لَنْ يَمْحُ ذُلٌّ وَأَرْضُ الْقُدْسِ إِغْلَاقُ

قُلْ لِلْعُرُوبَةِ تَهْذِى فِى خَمَائِلِهَا

لَيْتَ الْعُرُوبَةَ أَشْعَارٌ وَأَشْدَاقُ

لَيْتَ الْعُرُوبَةَ نُوقَ فِى مِضْمَارِهَا

لَيْتَ الْعُرُوبَةَ صَقَّارٌ وَإِعْتَاقُ

كُلُّ الْفُحُولَةِ تَصْحُو فِى حَنَاجِرِنَا

سَهْمَ الْفُتُوَّةِ أَصْوَاتٍ وَأَبْوَاقِ

صَمْتَ الْمَعَازِفِ وَالْقِيَانِ يَسْمَعُهَا

مِن كُلِّ حَدَبِ أَعْلَامٍ وَأَحْدَاقِ

صرخ الْمَنَابِرَ وَالْآهَاتِ يَمْنَعُهُ

وَقْرَ الْآذَانِ وَعُهُودٍ وَمِيثَاقِ

آهٍ يَا قُدْسِ لَوْ تَرْجِعُ بِأُغْنِيَةٍ

لِأَصْبَحَ الْمَبْكَى أَلْفَ بِرَاقِ

تِلْكَ الْأَمَانِيُّ مَكْفُولٌ بِخِفْتِهَا

مَا الْقُدْسِ إِلَّا مِقْيَاسٌ لِأَعْنَاقِ

عُنُقٌ لِمَسْخَ قَزَمٍ يَزْرِي عَشِيرَتَهُ

وَأُخْرَى كَطَوْدٍ رَاسِخٍ عِمْلَاقَا

تَرَى يَا أَقْصَى هَلْ تَرْضَى بِغَائِلَةٍ

مِنْ بُنِيِّ إسماعيل أَوْ بُنِيُّ إسحاق

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورَ يستضاء بِهِ

فِي كُلِّ نَازِلَةٍ مَسْلُولُ وَبُرَّاقَا

يَا آلَ بَيْتُ رَسُولِ اللهِ حُبُّكُمُ

عِلْمَ وَدِينَ وَفِقْهَ وَإِشْرَاقَا

لَمْ تَبْقَ شَائِبَةٌ قِيلَتْ فِي شَمَائِلِكُمْ

إِلَّا وَلَصِقْتُ بِأَهْلِ الْبُهْتِ إلصاق

لَوْعُدْنَا لِلْفُرْقَانِ عَادَ الْقُدْسُ لَنَا

سَيْفَ الْمَعَارِكِ إِنْصَافٌ وَإِحْقَاقَا

بَعَثَ الطَّبَائِعُ مَرْهُونٌ بِمَوْتَتِهَا

وَأَدِ الْحَقَائِقَ مَقْرُونٌ بِإِخْفَاقِ

كُلُّ الْخُطُوبِ سِوَى الْإِسْلَامِ هَيِّنَةً

كُلُّ الدُّرُوبِ لَهَا فِى الْبَيْنِ حداق

****

عم ميلاد : ما كنت أظنها بهذه الجودة! ولكنها تستحق النشر.

سلاما : النشر! حلال عليك، انشرها باسمك.

عم ميلاد : لا! أنت صاحب الملكية الفكرية، لابد أن يعرف الكل أنها من تأليفك، هذا حقك، ولابد أن تحرص عليه.

سلاما : إذا حسبناها بالواجبات والحقوق سنكون نحن الخاسرون ، فمن الأفضل لنا أن نعيشها بالستر.

عم ميلاد : صدقت، نتركها تمشي بالستر.

وغادر سلاما وشاكو محل المكوجي وعادوا إلى شجرة الجميز.

اليوم الرابع عشر

شجرة الجميز

يجلس سلاما وشاكو كما هو معتاد، ولكن كان في انتظارهم خطب جلل، كان هذا اليوم هو يوم تنفيذ القرار الصادر من الحي بقطع شجرة الجميز لتوسعة الطريق.

جلس سلاما يتأمل في ما يحدث، حضر إلى شجرة الجميز بعض الموظفين من الحي ومعهم القرار بقطع شجرة الجميز، ويبدو أن بعض جمعيات المجتمع المدني المدافعة عن البيئة قد نما إليها الخبر؛ فحضروا إلى شجرة الجميز، ولما وصل الخبر إلى أهل الحي تجمع الكثير منهم عند شجرة الجميز.

فمنهم من حضر لمنع الحي من القيام بقطع الشجرة التي تحتل مكانة خاصة عندهم، ومنهم من حضر لتأييد القرار، ومنهم من حضر من قبيل حب الاستطلاع، ومنهم من حضر متفرجًا، ومنهم من حضر متصيدا للأخطاء، ومنهم من حضر للظهور بمظهر المدافع عن البيئة، ومنهم من حضر لالتقاط الصور التذكارية، ومنهم من حضر للوقيعة بين ادارة الحي والمواطنين، ومنهم من حضر تضيعا للوقت، ومنهم من حضر حبًا في الزحام، ومنهم من حضر للسرقة، ومنهم من حضر ليرى مدى همجية البشر، ومنهم من حضر للتصوير، ومنهم من حضر لإثبات حالة، ومنهم من

حضر لأنه لم يجد ما يفعله، ومنهم من حضر للصحافة، ومنهم من حضر للتلفزيون، وهكذا بدأ كل من حضر يدلي بدلوه في النقاش، وبدأ كل منهم في تبرير موقفه ومدى وجاهته، وما زال سلاما وشاكو يجلسان في مكانهما يراقبان الوضع، وبدأت الأصوات تتعالى، وبدا أن كل طرف يريد فرض قناعاته على الطرف الآخر.

ومع مرور الوقت لاحظ سلاما أن كل طرف من الأطراف لا يستمع إلى الآخر، وإنما يهتم في المقام الأول بإظهار وجاهة رأيه ومبررات هذا الرأي ، وأن كل طرف عندما يستمع للطرف الآخر لا يريد فهم الآخر؛ وإنما يستمع فقط حتى يتصيد ما يستطيع المجادلة به وتغليب كفته في الحوار.

ومن الواضح أن الخبر قد انتشر عن طريق الإنترنت، ولذلك كان كل منهم يتكلم من خلال المنظور الذي قرأ منه الخبر، أو بمعنى أدق من خلال عنوان الخبر الذي قرأه، أو من خلال وجهة نظر كاتب الخبر نفسه، فكلهم قد قرأ الخبر من الإنترنت وهو في الحقيقة خبرًا واحدًا، ولكنه عندما انتقل؛ أصبح أخبارًا متعددة نتيجةً لطريقة انتقال الخبر وطريقة صياغته.

فمعظم الحضور تحرك في تنفيذ الفعل قبل مجرد التفكير فيه، وكان هذا التحرك بناءً على صورة ذهنية غير مكتملة وربما مشوهة للحدث الحقيقي، ومع ذلك يمكن أن يؤدي هذا النقاش بينهم إلى المواجهة والصدام البدني بين الأطراف المختلفة.

ومع أن كل طرف منهم يبذل مجهودًا بدنيًا ونفسيًا ضخمًا لفرض رأيه، ولكنه لم يمنح نفسه فرصة حقيقية لبناء صورة مكتملة عن الحدث الذي يتصدى له ، فقد تحرك قبل أن يفكر بشكل حقيقي.

ولكن المشكلة الأكبر هي في اعتقاد كل فرد منهم أنه يتصرف وفقًا لإرادته الحرة بدون أي تأثير خارجي على سلوكه! مع أنه في الحقيقة يتصرف نتيجةً لصورة ذهنية تداخلت عوامل كثيرة في رسم هذه الصورة الذهنية التي يتبناها.

فهو في الحقيقة يتحرك وفقًا لإرادة من يمتلك التأثير الأكبر في رسم هذه الصورة الذهنية، فيقوم بتنفيذ ما يريده راسم هذه الصورة ولكن بإرادته الحرة، وهو ما يطلق عليه في اللغة "الانضباع" وهو لفظ له دلالة عند العرب قديمًا.

ولفهم هذا التعبير نوضح المقصود من الإنضباع عند العربي القديم، عندما يستخدم هذا المصطلح فهناك أسطورة تقول إن الضبع إذا أراد اصطياد الثور؛ احتال على هذا الفرق الواضح في القوة البدنية بينه وبين الثور بحيلة، وهي أنه يقوم بالوقوف أمام الثور وينظر في عينه ويفعل ما يشبه التنويم المغناطيسي للثور، ثم بعد ذلك يقوم الضبع بالسير أمام الثور، فيقوم الثور بالسير من خلفه إلى الوجار- وهو بيت الضبع -، فإذا رأت العرب ذلك المشهد قالوا هذا ثور منضبع، أي أنه يسير إلى حتفه بإرادته، ثم بعد أن يصل الثور إلى الوجار يقفز الضبع فوق رأس الثور ويبول عليه، وبوله يحتوي على مادة مخدرة، فيسقط الثور على الأرض، فيقوم الضبع بالتهام الثور، ولا يشترط أن يكون الضبع يفعل ذلك على الحقيقة، ولكنها تمثيل لمعنى الانضباع.

وهذا التصور من أسوأ السلبيات التي يمكن أن تحدث من الاستخدام الخاطئ لشبكة الانترنت، حيث أن من يمتلك القدرة على حجب وتمرير المعلومات يمكن أن يستخدم ذلك في تكوين صورة ذهنية غير حقيقية للمتلقي، خصوصًا بعد أن تمكن باستخدام الذكاء الاصطناعي من رسم تحليل شامل ومتكامل لشخصية الأفراد والمجتمعات؛ من خلال مراقبة تعاملهم مع المحتوى الموجود على شبكة الإنترنت.

وهذا ما يمكن أن نطلق عليه " الانضباع النتي "، أي الناشئ من الاستخدام الغير واعي لشبكة الانترنت، ولتجنب ذلك يجب تربية الأجيال القادمة على ملكة التفكير المستقيم والعقلية الناقدة.

وزيادة في الإيضاح، يمكن أن نأخذ نموذجًا من حاضرنا المعاصر لمعرفة مدى تأثير "الإنضباع النتي" على كل فئات المجتمع، وهذا النموذج هو "نسبة الطلاق في مصر في الوقت الحاضر"

أولًا : سنقوم بالدخول على أي محرك بحث ونكتب هذه الجملة " نسب الطلاق مصر " ومن خلال الطلب من مصريين في داخل مصر وخارجها كتابة نفس الجملة على محرك البحث؛ سنجد بكل بساطة أن النتائج غير متطابقة لنفس عنوان البحث، وهذا أمر طبيعي وضروري أيضًا بالنسبة لمحرك البحث؛ لأنه بمجرد كتابة العنوان المراد البحث عنه ثم الضغط على بحث يقوم محرك البحث مباشرةً بالبحث في ملايين النتائج التي تتطابق مع هذا العنوان، ولذلك فلابد من اختيار بعض النتائج التي تتوافق مع عنوان البحث، لأنه من المستحيل إظهار كل النتائج في وقت واحد، وأيضًا لابد من القيام بعملية تحديد كيفية أولوية الظهور في نتائج البحث، وهذا أمر ضروري أيضًا.

ولذلك علينا أن نأخذ بعين الاعتبار هذه التدخلات من قبل محرك البحث، ولابد أن نعرف المعايير التي تم على أساسها هذا التدخل في إظهار النتائج، وعلينا أن نذكر أنفسنا دائما بأن محرك البحث هذا ما هو إلا شركة ربحية، بمعنى أن المكسب والخسارة هو المعيار الحقيقي الذي يؤخذ في الاعتبار عند القيام بذلك العمل، فبالنسبة لعرض النتائج لابد من التدخل المحسوب في عملية العرض.

ونأتي إلى طريقة صياغة المعلومات، فنجد أن الصياغة تختلف باختلاف الجهة المسؤولة عن نشر المعلومة، وهذا يؤدي إلى اختلاف مردود المعلومة على المتلقي، وهكذا سنجد أن التدخلات في إيصال المعلومة للمتلقي متعددة وتختلف باختلاف مصالح كل طرف، وهذه التدخلات لا تتاح إلا لمن يمتلك القدرة على ذلك، ومن لا يمتلك هذه القدرة عليه باستقبال المعلومة كيفما يسمح به من يمتلك هذه القدرة.

ونعود إلى مضمون عنوان البحث وهو "نسب الطلاق مصر"، سنجد أن أكثر من تسعين في المائة من النتائج تشير إلى إرتفاع نسبة الطلاق في المجتمع المصري بصورة مرعبة تصل إلى أكثر من ثلاثين في المائة سنويًا!

وسنجد أنه بناءً على هذه المعلومة المنتشرة على معظم المواقع الرسمية وغير الرسمية في مصر، تحفزت جميع مؤسسات المجتمع في البحث عن حلول ،وأيضًا البحث عن الأسباب، وأيضًا البحث

عن كيفية التعاطي مع السلبيات الناتجة عن هذه الظاهرة، وبدأت مراكز الأبحاث والجامعات والمجتمع المدني كل في ميدانه يحاول البحث عن مخرج لهذا السلوك الكارثي على الأسرة والمجتمع، وأستمر هذا الحال من البحث والتفحيص والتمحيص مايقرب من عشرة سنوات، وأصبح المجتمع بكل طوائفه يكرر هذه المعلومة ويبني عليها سلوكيات وردود أفعال حياتية يومية .

فكان لهذه المعلومة بالغ الأثر في جميع نواحي الحياة، وعلى جميع أفراد المجتمع، وبعد ما يقرب من عقد من الزمان؛ تم الانتباه لهذا الأمر، وبدأت المؤسسات المعنية القيام بتدقيق عملي على أرض الواقع لهذه المعلومة المتداولة منذ أكثر من عشر سنوات، وكانت المفاجأة .

تبين بعد عملية التدقيق في المستندات الرسمية في فترة زمنية تجاوزت الستون عامًا.

تبين أن نسبة الطلاق الحقيقية في مصر لم تتخطى الثلاثة في المائة! وتلك النسبة لم تتغير منذ ستة عقود سابقة.

ولكن السؤال ، كيف حدث هذا اللبس في التنسيب؟

الإجابة أن من توصل إلى هذه المعلومة الخاطئة قام بتنسيب عدد حالات الطلاق في سنةً واحدة بعدد حالات الزواج في نفس السنة، ولذلك كانت هذه النسبة تتخطى الثلاثين في المائة .

وهذا التنسيب خاطئ، لماذا ؟

لأن عدد حالات الطلاق في هذه السنة لم يكن لمن تزوج في هذه السنة فقط ،وإنما كان لحالات زواج تمت من عدة سنوات سابقة، فإذا أردنا المقارنة بين حالات الطلاق وحالات الزواج في سنة واحدة، فعلينا بتحديد عدد حالات الطلاق من عدد الزيجات التي تمت في هذه السنة فقط، وستكون النتيجة أنها لم تتجاوز الثلاثة في المائة.

ولكن السؤال الأهم هنا، هل يمكن أن نعتبر أن المجتمع المصري كان منضبعا بالنسبة لهذه المعلومة لما يقرب من عشر سنوات؟ فجميع مؤسسات المجتمع تجتهد وتبحث وتفكر وتعقد ندوات ومحاضرات ورسائل علمية وإعلامية وهي تعتقد بصورة جازمة أنها تتصرف بإرادتها الحرة وبدون أي تأثير خارجي عليها وعلى عملها.

ولكن في الحقيقة نجد أن كل هذا العمل وكل هذا المجهود كان نتيجة "الانضباع النتي" إذا صح التعبير، ونحن لن نتطرق إلى الحديث عن احتمالية كون هذا الخطأ مقصودًا أو غير مقصود؛ وهذا نموذج واحد فقط من أرض الواقع، وكان له بالغ التأثير على جميع أفراد ومؤسسات المجتمع.

ولذلك فنحن قد بدأنا فعليًا في عصر الإنضباع النتي، وبمرور الوقت وزيادة قدرات الذكاء الاصطناعي؛ ستصبح الشعوب الأضعف التي لا تمتلك القدرة المعلوماتية بمثابة

"قطيع من الثيران المنضبع في إنتظار يوم النحر".

وبالعودة إلى قرار الإزالة، نجد أن النقاش بين كل الأطراف قد بدأ يخرج عن السيطرة، وعندما لاحظ سلاما؛ ذلك قام الى شجرة الجميز ومرر يده عليها، وهمس لها ببعض الكلمات، ونظر اليها نظرة الوداع.

وبعد ذلك غادر هو وشاكو شجرة الجميز، ولكن لا ندري هل سيتمكن من الجلوس تحت شجرة الجميز مرةً أخرى ؟

أم أن لكل مخلوق نهاية؟ وسبحان من له الدوام.

وبذلك نكون قد أنهينا أيام سلاما تحت شجرة الجميز.

كنز الوصول في الصلاة على حضرة الرسول

الغلاف

ونحن لن نتطرق إلى الحديث عن إحتمالية كون هذا الخطأ مقصودًا أولا، فهذا نموذج واحد فقط من أرض الواقع كان له بالغ الأثر على جميع أفراد ومؤسسات المجتمع، وهذا يعني أننا قد بدأنا فعليًا في عصر " الانضباع النتي "، وبمرور الوقت وزيادة قدرات الذكاء الاصطناعي ستصبح الشعوب الأضعف التي لا تمتلك القدرة المعلوماتية بمثابة .

" قطيع من الثيران المنضبع في انتظار يوم النحر "

****

الكاتب : محمود عبدالسلام

Salama

"رجلٌ يسعى"